مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية
يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى، رئيس الجمعية – والدكتور عثمان أمين، سكرتيرها العام

التنبؤ بالغيب

عند مفكرى الإسلام

تأليف
الدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

١٣٦٤هـ — ١٩٤٥م

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية
يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى، رئيس الجمعية – والدكتور عثمان أمين، سكرتيرها العام

التنبؤ بالغيب
عند مفكرى الإسلام

تأليف
الدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

١٣٦٤هـ — ١٩٤٥م

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

مقدمة

ظهر الميل إلى اكتشاف الغيب المحجّب ، منذ وُجد على ظهر الأرض إنسان ، لأن مَرَدّ هـذا الميل إلى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول ـ وهى معرفة تراد لذاتها أصلا ، وإن جرت العادة باتخاذها أداةً لخدمة غايات ـ ومن هنا كان التنبؤ بالغيب ، مثار افتتان الشعوب فى كل زمان ومكان[1] . وليس ينفى هـذا ما يلحظه البعض من أثر انتشار « العلم » فى إضعاف هذا الميل عند الناس ، إذ ليس العلم فى كل صُوَره ، إلا محاولة ترمى إلى اكتشاف مجهول ـ واختلاف المناهج وتباين المقاصد ، لا يغير من هذه الحقيقة كثيرا .. !

وقد أدى تشارك البشر فى فطرية النزوع نحو إدراك الغيب ، إلى تشابه الكثير

---

(١) حسب القارئ فى بيان هذا الميل الفطرى عند الناس ، أن يطلع على أبحاث :
Bouché — Leclercq, L'Histoire de la Divination dans l'antiquité
بأجزائه الأربعة ـ ثم بحثه عن التنبؤ الإيطالى (باريس ١٨٨٢) وبحثه عن التنجيم الإغريقى (باريس ١٨٩٩) وأن يقرأ « العلم بالغيب » Divination لفيلسوف الرومان وخطيبهم شيشرون Cicero

وقدنقلناه إلى العربية وألحقناه برسالتنا للدكتوراه «الأحلام» ، وفى نيتنا أن ننشر ترجمته مع التعليق عليها قريباً ، وكذلك Encyclopeadia of Religion and Ethics, (Dr.Hastings) art. Divination وقد اشترك فى وضع هذه المادة سبعة عشر عالما ، تناول كل منهم الحديث عن التنبؤ عنـد الشعب الذى تخصص فى دراسته ، وهذه المصادر تزود من يريد التوسع فى هذا الموضوع ، بكثرة من المراجع .

من أساليب التنبؤ عند الشعوب فى مختلف العصور ، وقد خدعت البعضَ هـــذه الظاهرة ، فقرروا بأن هذا التشابه فى كل حالاته ، مرجعه إلى نقل اللاحق عن السابق وعدوى الثقافات وتزاوج الآراء ، واستندوا فى هذا إلى انتقال الحضارات والثقافات، من شعوب الشرق فى ماضيه السحيق ، إلى شعوب اليونان والرومان ، وانحدارها عن هؤلاء وورّاث تراثهم إلى العالم الإسلامى ... والرأى عندنا أن هذا التبادل العقلى بين الشرق والغرب ، إذا كان له تأثيره فى وجوه التشابه فى بعض فنون التنبؤ ، فالراجح أن الكثير من وجوهه الأخرى ، مرده إلى وحدة العقل البشرى ، وتشابه استجاباته ـ مع اختلاف الزمان والمكان ـ كلما تشابهت المؤثرات ... بهذا يفسر جمهرة المحدثين من علماء الاجتماع الكثير من مظاهر التشابه فى الحضارات البدائية، حتى فى بعض الحالات التى ثبت فيها الاتصال بين هذه الشوب ..!(١)

وقد مكّنت الأديان لهذا الميل الفطرى عند البشر ، لأنها لاتستقيم بغير الإيمان بالغيبيات، وليس فى هذا مايضير الأديان فى شىء ـ وقد أقر الإسلام نفسه العلم بالغيب، وردّه إلى علام الغيوب ومن يجتبيه تعالى من رسله وصفوة المؤمنين من عباده ، وعرف العالم الإسلامى صنوفاً من مدركى الغيب ، يتقدمهم الرسل والأنبياء ، ويليهم الأولياء وأهل الكشف الصوفى ونحوهم من المجانين والبهاليل والمرضى والمتوهين من المريدين ، وأصحاب الرؤيا الصادقة ، وغيرهم ممن لايتوسلون إلى إدراك الغيب

---

(١) إذا كان Elliot Smith قد رفض هـذا الرأى الذى أيده Frazer وغيره ، ورد الحضارات إلى اختراع شعب واحد ـ قدماء المصريين ـ عنه أخذتها بقية الشعوب ؛ فقد دحض رأيه ماكس مولر ، وبدا هذا التفسير صحيحاحتى فى دقائق البحث العلمى ، وليس الاتفاق الفجائى الذى وقع عام ١٨٥٨ بين « ألفرد والاس » A. Wallace و « داروين » Darwin فى وجهة النظر التطورية ، إلا شاهداً على صحة مانقول . وسنعود إلى بيان هذا فى آخر فصل فى هذا الكتاب

صناعة واكتسابا ، وأولئك هم أهل التنبؤ الطبيعى Natural Divination كما كان يسميه شيشرون Cicero وغيره من قدماء مؤرخيه .

وعرف العالم الإسلامى ـ مع هؤلاء ـ صنوفاً من أهل التكهن الصُّنْعى[١] Artficial Divination الذى يقوم على منطق العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، وصدق الحدس وتوثب الفطنة ودقة الملاحظة ووقدة الذكاء ، ونحو هذا مما يجىء أغلبه اكتسابا ـ قد لايفلح إذا لم تصحبه فِطَرٌ تمكّن من بلوغ غايته ـ وهو يشمل فى الإسلام الكهانة والعرافة والعيافة والنجامة والطّيرة والفراسة ومايتصل بهذه الفنون.

والاستناد إلى منهج البحث العلمى ، والاهتمام بقانون العلية عند تحليل هذه الفنون التى استخدمت للكشف عن الغيب المحجب ، يُفضى إلى عكس النتيجة التى انعقد عندها رأى جمهرة مفكرى الإسلام ـ فلاسفةً وصوفيةً ورجال شرع..!! وهذه نقطة ستتكشف مقدماتها فى الفصول التالية ، ونعود إلى مناقشتها فى نهاية هذا البحث .

وحسبنا الآن أن نقول إننا حاولنا فى هذا الكتيب ، أن نؤرخ وجهات النظر الإسلامية فى أشهر أساليب التنبؤ ، وأن نتتبع أصولها فى القرآن الكريم والتراث الإسلامى إجمالا ، وتأدّى بنا هذا إلى الإشارة إلى مايشبه هذه الآراء ، فى تراث القدامى من الغربيين والشرقيين على السواء[٢]، وإن اضطرنا ضيق المقام فى كل حال ،

---

(١) الصنعى لفظ أطلقه مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، على ما يقابل عند الفرنجه Artficial (fr:ielle)

(٢) كان أكبر اعتمادنا فى ذلك على كتاب شيشرون السالف الذكر ، وتعليقات طبعة « جارنييه » Garnier الفرنسية و « لويب » Loeb الإنجليزية ، ويليه « بوشيه لوكليرك » ولم نجد مايبرر التوسع فى ذلك لضيق المقام .

إلى الإيجاز حتى فيما يتطلب الإسهاب . فحسبنا أن نثير فى أذهان القراء هذه الوجوه من النظر العقلى، كما تضمنها تراثنا الإسلامى ، عسى أن تكون إثارتها مزاجا من اللذة العقلية والمنفعة المشتركة .

ولعل من المناسب أن نشير — قبل أن ننتهى من هذه المقدمة — إلى أن هذا الموضوع — فيما نعلم — بِكْر لم يطرقه أحد الباحثين من قبل ولا سيما ما اتصل منه بأساليب التكهن الصنعى — إذا استثنينا ما عرفته بعض فنونه فى العربية قديما ، من مصنفات أو مقالات قصار ، قَلّ منها ما يدخل — من باب التجوز — فى نطاق البحث العلمى .

وبعد، فليس يسعنى فى ختام هذه الكلمة، إلا أن أحيي الجمعية الفلسفية المصرية، ممثلة فى رئيسها الأستاذ الدكتور على عبد الواحد ، شاكراً له ملاحظاته الطيبة على بعض نواحى هذا البحث ...

الإسكندرية فى { شوال ١٣٦٤ هـ / سبتمبر ١٩٤٥ م }

توفيق الطويل

البابُ الأول

علم الغيب

عند مفكرى الإسلام

— ١ —

علم الغيب

حد الغيب :

الغيب هو الأمر الخفى الذى لايدركه الحس ، ولا تقتضيه بداهة العقل[١]، ويقع العلم به دون مقدمات أو أسباب تفضى إليه ، ومن غير استدلال منطقى ينتهى إلى معرفته ، ودون أن يثبت عنه خبر صادق[٢]أما مايدرك بالدليل والقياس والنظر، فإنه مجرد ظن ، والظن غير العلم[٣] . وعلى هذا يكون العلم بالغيب إدراك جزئى أو كلى مغيب عنا ، دون التوسل إلى ذلك بصناعة أو نحوها مما يستند إليه الزجر والتطير وما إليه[٤] .

---

(١) التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٠٩٠ وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدى أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر فى الجزء الخامس من المجلد الثامن) ولكن هذا التعريف أحنق فضيلة الأستاذ مصطفى صبرى (شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية سابقا) فندد به فى كتابه (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون) وقرر (ص ١٤٩) بأن الغيب ما غاب عن الحاسة ، والذى يبدو لنا أن التعريفين ليس بينهما تناقض ، وإن كان كلاهما غير واف بالحاجة .

(٢) اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٥ ــ ١٠٦ طبعة المطبعة العربيــة عام ١٩٢٨ م ، وابن خلدون فى المقدمة ص ١٠٤ طبعة المطبعة البهية بمصر .

(٣) التهانوى ، فى الكشاف ج ١ ص ٥٢

(٤) ابن حزم ، الفصل فىالملل والنحل ج ٥ ص ٣٩ الطبعة الأولى بمطبعة التمدن ١٣٢١ ه

علم الغيب لا يجىء اكتسابا :

ومن أجل هذا ذهب جمهرة مفكرى الإسلام إلى أن الله وحده علام الغيوب ، فليس يعرف الغيب أحد من البشر « لا منجم ولا كاهن ولا نبى من الأنبياء ولا ملك من الملائكة إلا الله عز وجل » وذلك لأن معارف المرء لاتتجاوز ثلاثة ميادين : أولها ما اتصل بالماضى ، وثانيها ما انصب على الحاضر ، وثالثها ما امتد إلى المستقبل . ويدرك المرء هذه الآفاق بثلاث طرق : أولاها السماع والإخبار ، وثانيها الإحساس بما هو حاضر موجود ، وثالثها الاستدلال على ماهو كائن فى المستقبل — وهذه الطريق تشمل النجوم والزجر والفأل والكهانة والعيافة ، وتتضمن تأويل الأحلام والنظر فى الكف وضرب الحصى والعرافة ونحوها مما يحتاج إلى تعلم ونظر واعتبار ، وليس هذا كله من الغيب فى شىء ، فإنما يقع الغيب بالخواطر والوحى والإلهام وهذا لايجىء صناعة ولا اكتسابا[١] وتوجه المرء بقلبه إلى الله ليكشف له الغيب ، من صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ومن أجل هذا قلّ الكشف عند أكابر الصحابة وكمّل السلف الصالح ، ناهيك بمن يلتمسون الغيب بالتوجه إلى غير الله ...[٢]

---

(١) اخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) كأن يتوجهوا إلى الكواكب كما يفعل أهل النجامة فيما يقول البعض (قارن جواهر الكلام للأيجى — ص ٢٠٥ من الجزء الثانى من المجلد الثانى لمجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد (ديسمبر ١٩٣٤ نشرة الدكتور أبى العلا عفيفى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول) .

العلم بالغيب عند صفوة البشر :

الله وحده علام الغيوب ، ولكن استئثاره تعالى بالغيب ، ليس معناه فى نظر الكثيرين من مفكرى الإسلام ، سلب القدرة على معرفة الغيب عن كافة البشر ، فإن معرفة الغيب هبة لمن شاء أن يجتبيه الله من عباده ، أو فطرة يؤتيها صفوة المؤمنين وخاصة الناس ، ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح . وآية هذه الفطرة أن أهلها إذا توجهوا إلى تعرف الكائنات المغيبة عنهم ، اعتراهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادئ الغياب عن الحس ، ويتفاوت هذا بتفاوت هذه الفطرة عند أهلها ، ومن لم تتهيأ له هذه الآية فليس من إدراك الغيب فى شىء ، وإنما هو ساع فى تنفيق كذبه[1] وشبيه بهذا ما يقع لأصحاب الوحى من الأنبياء ، إذ تدركهم غيبة عن الحاضرين معهم ، يصحبها غطيط كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، ولكنها فى حقيقة الأمر استغراق فى لقاء الملك الروحانى ، بما تهيأ لهم من إدراك خارج عن نطاق البشر إطلاقا ، ومن أجل هذا اتهمهم أهل الشرك بأن لهم رئيا أو تابعا من الجن ، ولو لم يلتبس عليهم ماشهدوه من ظاهر الأحوال ، لعرفوا أن ذلك وحى من الله[2] .

ويقول « لين » E. W. Lane فى معرض حديثه عن أهل الدرك من الأولياء : جرت العادة بأن يقال إن الولى يعرف مايخفى على غيره من البشر ، إذ يهبه الله القدرة على إدراك أسرار من الغيب ، تقتضى ولايتهُ العلمَ بها ، وبذلك يطلع على مالا يكون فى

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٨ — ٩٩ ، ١٠٢

(٢) المصدر السالف ص ٨٠

متناول الإدراك الحسى ، وهذا يناقض ـ فيما يقول «لين» ـ تناقضا صريحا مايقرره القرآن الكريم فى عدة مواضع ، من أن حجاب الغيب الذى تقصر الحواس عن إدراكه ، لايرتفع لغير الله ، ولكن المسلمين قلما تساورهم الحيرة فى مناقشة موضوع، فهم يدللون على أن الآيات القرآنية فى هذا الصدد ، تتضمن الحديث عن العلم بالغيب بمعناه المطلق ، ويرون أن الله يهب أولياءه هذا العلم متى أراد ذلك(١) وسنعود إلى مناقشةمايراه الأستاذ « لين » تناقضا بين موقف القرآن وموقف حملته من المسلمين .

هذا ما يقع للأيقاظ من مدركى الغيب ، أما النيام فقد يوحى الله إليهم برؤيا صادقة يطلعهم فيها على غيبه ، فيرون مكنوناته دون أن يخرجوا عن حالتهم الطبيعية فى كثير أو قليل .

ومن هذا نرى أن الله وإن استأثر بعلم الغيب ، فإنه قد يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه ، فيكون إدراكهم من خصائص النبوة ، وهى لا تجىء اكتسابا ، وقد يقوى بعض المخلصين من أتباع هؤلاء الرسل، على الإشراف على عالمه بانكشاف الحجاب وإدراك شىء من تلك الأنوار ، ودون هؤلاء أفراد ربما كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك ، فيدركون شيئا من عالم الغيب أحياناً (١) .

هذا هو الاتجاه الغالب عند مفكرى الإسلام ، وإن كنا سنعرض فى ختام هذا

---

(1) E.W. Lane, The Manners and customs of the Modern Egyptains.

(٢) السيد رشيد رضا ، الوحى المحمدى ص ١٦٥ وتفصيله فى جزء التفسير السابع (له) ص ٤٢١ ، ٤٥٦ — ٤٦٩ وملحقه فى الجزء التاسع ص ٥١٣

البحث ، إلى بيان شيء من وجوه الخلاف بين المفكرين فى تأييد التكهن الصنعى أو إنكاره ، مقدرين بأن التأييد لا يخلو من التأثر بالاتجاهات الهيلينية القديمة ، وأن الإنكار مرجعه إلى الروح الدينية الإسلامية .

علة الإدراك الغيبي فى نظر مفكرى الإسلام :

ومردّ القدرة على إدراك الغيب ـ فى نظر هؤلاء المفكرين ـ إلى ذهاب الحس وزوال حجابه ، وقد يتهيأ هذا لبعض المجانين والمرضى والقتلى والمتوهين من المريدين، ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس عن علائق البدن ، وانشغالها عن التفكير العقلى ، ومن هنا وقع الغيب لهؤلاء ، ولمن يحاولون أن يموتوا بالمجاهدة موتاً صناعيا، بقتل كافة قواهم البدنية ، وبمحو آثارها التى تلوثت بها النفس[١] ، فليس يمنع النفس من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها فى البدن والحواس وشواغلها ، فإن الحواس بما فطرت عليه من إدراك حسى جسمانى ، تجذب النفس إلى الظاهر دواماً، ولكن النفس إذا انغمست من الظاهر إلى الباطن ، ارتفع حجاب الحس لحظة ، تتطلع فيها النفس إلى الذوات التى فوقها فى الملأ الأعلى ، لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال ، وفى هذه الذوات صور الموجودات لأنها إدراك محض وعقول بالفعل ، فتقتبس النفس منها علما ومعرفة[٢] ، ومن أجل هذا جاز وقوع العلم بالغيب ، لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس فى يقظة أو منام ، أليس فى النوم زوال لحجاب الحس[٣] . . ؟

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٥

(٢) المصدر السالف ، ص ٩٢ ـ ٩٣ و ٤١٥ ـ ٤١٦

(٣) وهكذا أخرج جمهرة مفكرى الإسلام من مدركى الغيب ، مدعيه من أهل العرافة والنجامة والعيافة والطيرة والسحر ونحوه .

اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحى والإلهام :

والإسلام ـ كغيره من الديانات ـ لا يستقيم دون الاعتقاد فى صحة الوحى والإلهام ، ولهذا كان لا بد لمفكريه من أن يعرضوا لتفسير الوحى تفسيراً عقلياً يدحض مفتريات منكريه ، أو يصد تيارها على أقل تقدير . وقد اختلفت وجهات نظرهم فى مسالكها وتفاصيلها ، ولكنها اتفقت فى أصولها والتقت عند تأييده ، وحسبنا الآن أن نشير موجزين إلى هذه الاتجاهات :

الاتجاه الفلسفى فى تفسيره :

فأما الفلاسفة فقد ذهب جمهرتهم فى تأويله إلى ترقّى العقل البشرى فى مراتب الإدراك، حتى إذا بلغ مرتبة الفيض والإلهام، وأضحى ـ عقلا مستفاداً ـ اتصل بالعقل الفعال الذى يربط بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وعند وقوع هذا الاتصال يتقبل المرء فيض الأنوار الإلهية ، وتنكشف له مكنونات الغيب المحجب ، وقد يقع هذا الاتصال بالتأمل العقلى للحكماء ، وبالمخيلة القوية مع هذا التأمل للأنبياء والواصلين من الأولياء . فالوحى عند فلاسفة الإسلام اتصال النفوس الناطقة بعقول الأفلاك ونفوسها اتصالا معنويا يمكنها من الاطلاع على ما يتضمنه من صور الحوادث التى ترتسم فى النفس البشرية ، كما يحدث إذا حاذت مرآةٌ مرآةً أخرى فيها نقوش تنعكس إلى الأولى كما يقول ابن سينا فى إشاراته .

الاتجاه الصوفى فى تفسيره :

وقد تشعبت وجهات الصوفية فى نظرهم إلى ذلك ، فمنهم من تحول عنده الاتصال الفلسفى إلى اتحاد ترتبط فيه النفس البشرية بالروح المقدسة ـ أى العقل الفعال فى لغة الفلاسفة ـ بعد تجردها من علائق الحس وشهوات الجسم ونحوها مما أبان عنه السهروردى وأتباعه من الإشراقيين من الصوفية ، ومنهم من رفض الاتصال الفلسفى والاتحاد الصوفى السالف ـ كالغزالى ـ وقال بأن الإلهام الذى يفيض عنه العلم اللدنى، يصدر عن الله دون وسيط ، ومرده إلى فطرة النفس وتهيئها له من غير معلم ، فإن النفس مهيأة بطبيعتها لاستقبال الوحى والإلهام الإلهى متى تجردت من علائق حسها ، بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله مع الجوع والسهر ونحوه حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح، وتطالع النفس جواهر الملكوت وتنكشف لها مكنونات الغيب .

وليس يعنينا اختلاف الصوفية فى التفاصيل ، بقدر ما تعنينا النتيجة التى انتهوا إليها ، وهى نتيجة سلم بها بعض الحنابلة من أهل السنة ، الذين ناصبوا المتطرفين من الصوفية العداء . وهكذا يتفق صوفية الإسلام مع فلاسفته ـ فيما يقول معالى أستاذنا مصطفى باشا عبد الرازق ـ على اعتبار الوحى إشرافاً من النفس الإنسانية على حقائق الكون المنبثة فى عالم فوق عالمنا ، ولكن بين مذهب الصوفية ومذهب الفلاسفة فروقا ، لأن العالم العالى عند الفلاسفة ، عقول مجردة ونفوس هى عقول الأفلاك ونفوسها ، وصور الأشياء منقوشة فيها بحكم أنها مصادر لها وأسباب لوجودها ، وبحكم أنها مجردة بطبعها ودراكة ، أما العالم العالى ـ عند الصوفية ـ الذى يفيض منه

الوحى والإلهام ، فهو لوح محفوظ كتب الله فيه الوجه الذى أراده ، ما كان وما يكون ، وملائكته هم أجسام من نور ذوو نفوس كريمة لها اطلاع على ما فى اللوح ، وهى أيضاً ألواح ، خطت فيها صنوف من العالم الإلهى ، وما الوحى إلا أن يتلقى النبى من الملك شرائع إلهية مع شهود الملك وسماع خطابه ، إذ لا يجمع بين شهود الملك وسماع خطابه إلا الأنبياء ، أما الولى فإنه إن سمع صوتاً فهو لا يرى صاحبه، وإن رأى الملك لا يسمع له كلاماً - كما جاء فى كتاب الكبريت الأحمر .

ومنشأ الخلاف أن الفلاسفة فسروا النصوص الدينية بما يوافق ما استقر عندهم ، من نظام الكون وترتيب العوالم سفليها وعلويها ، فهم يجعلون الملائكة الذين ورد ذكرهم على لسان الشرع ، عبارة عن العقول المجردة والنفوس الفلكية التى أثبتتها فلسفتهم ، ويؤولون النصوص تأويلا يتفق مع أغراضهم . أما الصوفية فإنهم يعتمدون أولا على النصوص الدينية ، ويحاولون مبلغ جهدهم أن يشرحوا مبهمها ويوفقوا بين ظواهر التضارب بينها ، مضطرين إلى الركون إلى منازع الفلسفة ، وإلى ما يسمونه ذوقا تقصر عنه العبارة ويدركه العارفون ، فهم أقل إمعاناً فى التأويل ، وأقل وضوحاً فيما يقول معالى الباشا . وقد كان رأى الفلاسفة يظهر فى عصر النهوض ، كما يظهر رأى المتكلمين فى عهد الركود ، ومذهب المحدثين من أمثال محمد عبده ، إنما هو مذهب الفلاسفة قد طرزت حواشيه مذاهب المتكلمين(١) .

(١) معالى مصطفى باشا عبد الرازق ، فى بحث له عن الوحى - لم يطبع بعد ، وسنعود للحديث عن هذا الموضوع عند ما نعرض للكلام على « إمكان الوحى » و « طريقة الكشف عند الصوفية » ... الخ .

منابع هذه الأفكار :

إن الاعتقاد فى عالم الغيب والقدرة على ارتياد مجاهله ، أعرق فى القدم من النظر العقلى عند بنى البشر . لأن الناس لم يهتدوا إليه بمنطق عقولهم ، بل بوحى طبيعتهم وهدْى شعورهم ، وليس يعنينا الآن أن نؤرخ هذا الاعتقاد ، ولكننا سنحاول أن نرد الأفكار التى قيلت فيه إلى المنابع التى صدرت عنها ، وما دمنا بصدد تفكير إسلامى ، فإن من سداد الرأى ألا يتجه بنا البحث عن أصوله خارج الإسلام ، حتى إذا عز الاهتداء إلى جذوره فى نطاق الدين، اتجهنا إلى البحث عنها فيما اتصل بالمسلمين من تراث القدماء .

موقف القرآن الكريم :

ذاعت أساليب التنبؤ عند عرب الجاهلية ذيوعاً واسع المدى ، فلما نزل القرآن هاجم هذه الأساليب ، وحصر الإدراك الغيبى فى الله وحده ، ليجتث الوثنية من جذورها ، فلا يخشع أو يلجأ لغير الله إنسان(١) ، قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو »(٢) وكرر هـذا المعنى فى أكثر من آية(٣) . ولـكن الله يطلع على غيبة من يجتبيه من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولـكن الله يجتبى من رسله من يشاء »(٤) ويقول كذلك « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٥٤ (الطبعة السادسة عام ١٣٥١ هـ)
(٢) سورة الأنعام ، آية ٥٩
(٣) سورة هود آية ٣١ ، النمل آية ٦٥ والأنعام آية ٥٠ وغيرها
(٤) آل عمران آية ١٧٩

ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم »[١] . ومع أن آيات القرآن التى تنصب على العلم بالغيب ، يبدو أنها ترده إلى الله ومن يجتبيه من رسله ، فإن أهل السنة قد انعقد إجماعهم فى تفسير الآيات ، على إمكان اطلاع غير الرسل على الغيب ، اطلاعا لا يفيد أكمل مراتب العلم ، أو قصر اطلاعهم على بعض ميادين الغيب ، وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين[٢] .

والقرآن بعد هذا يحارب التنبؤ الذى يقصد إليه أهله ويلتمسونه صناعة واكتسابا، سواء اقتصروا فى هذا على التوسل إلى الله[٣] ، أو اعتمدوا فيه على الشواهد الحسية من قداح أو أزلام أو نحوها[٤] .

والله يطلع على غيبه من شاء بطرق شتى : فقد يرسل ملكا يتمثل بشرا سويا[٥] وقد يكلم الله الرسول تكليما[٦] ، وقد يلقى الله المعانى فى نفس الموحى إليه كما وقع لبعض الأنبياء ، وقد يوحى الله بالمعانى فى رؤيا صادقة تكشف عن مجاهل الغيب[٧]

---

(١) الجن ، آية ٢٦ — ٢٧

(٢) انظر Flügel فى « غيب — الغيب — بالغيب ... الخ

ويشهد بصحة هذا ، ماورد فى سورة الكهف عن صاحب موسى الذى أطلعه الله على غيبه بشأن السفينة والغلام والجدار ، مع أنه لم يثبت أنه كان نبيا أو مرسلا ؟ وما ورد فى سورة مريم عن هبوط الروح عليها ، وتمثله لها بشرا سويا ، وإطلاعه إياها على ماسيكون من أمرها ، وأمر ولدها ، مع أن مريم ليست نبيا ولا مرسلا .

(٣) الصافات آية ٦ — ٩ والطور آية ٣٧ والجن آية ٨ — ٩ ، الشعراء آية ٢١٠ — ٢١٢

(٤) المائدة آية ٣ ، ٩٠

(٥) مريم آية ١٦ — ١٩ ، الذاريات آية ٢٤ — ٣٠

(٦) النساء آية ١٦٤ والأعراف ١٤٤

(٧) الصافات آية ١٠٢ — ١٠٧ ويوسف آية ٤ — ٦

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد تضمن اتجاهات مفكرى الإسلام فى تعريف الغيب وتحديد آفاقه، حتى لانكاد نجد رأياً خلفوه فى هذا الصدد إلا وقد نصت عليه آياته الكريمة .

ولعل من الطبيعى ألاّ يتضمن القرآن اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحى وإمكان وقوعه تفسيرا عقليا ، فما لهذا نزل القرآن الكريم ، وهى من إبداع مفكرى الإسلام ، على الرغم من اتفاقها مع كثير من الأفكار الشائعة عند اليونان والرومان والهنود بهذا الصدد . والراجح أن هذا التوافق دليل على مايمكن أن تصل إليه وحدة العقل البشرى ، وتشابه استجاباته لتشابه المؤثرات ـ وسنعرض فيما يلى بعض نماذج من هذه الأفكار .

موقف اليونان والرومان من العلم بالغيب :

إن التشابه بين آراء اليونان والرومان وآراء مفكرى الإسلام ، لا يشمل الأصول وحدها ، بل قد يمتد حتى يتناول الفروع والتفاصيل : فمن ذلك أن الإدراك الغيبى قد أصاب حظه الوافر من تقدير المسلمين ، لأنه ارتبط بوحى الأنبياء وإلهام الأولياء ، فارتفع بذلك على كل علم سواه ، ولكنهم ـ مع هذا ـ هاجموا من أساليبه ما جاء صناعة واكتسابا ، لأن علم الغيب خاصة يستأثر به الله ويهبه من شاء من عباده ، وكذلك الحال عند اليونان والرومان : اتصل الإدراك الغيبى بالشعائر المقدسة وأضحى جزءاً من الدين ، واعتبر الاستخفاف به استخفافا بالآلهة (١) ، واهتم الذين أبوا التسليم به ، بتوكيد الفصل بينه وبين الدين والآلهة معا (٢) . وتدخل أهله فى

(١) قارن Cicero : Divination, i. 4,5 طبعة لويب Loeb الإنجليزية و Garnier الفرنسية ـ فى التعليقات ـ

(2) Ibid : i. 5 & 6 ; ii, 72.

شئون البلاد الداخلية والخارجية ، فكان الأثينيون لايعقدون اجتماعا إلا حضره الكهان والراءون ، كما خصص الأسبرطيون عيافا لنصح الملوك ، وحضور الجلسات التى يعقدها مجلس الشيوخ ، وكان الرومان لايقدمون على عمل إبان الحرب أو السلام إلا بعد استشارة أهل العرافة(١) ، وبعض هذا نراه ملحوظا فى قصور الخلفاء والملوك فى الإسلام كما سنعرف بعد .

وقد قسموا أساليب التنبؤ إلى صنعية تجىء صناعة واكتسابا (وتشمل العيافة والنجامة وتأويل الخوارق ... الخ) وطبيعية وتشمل حالات التنبؤ إبان الجذب فى اليقظة، والرؤيا الصادقة أثناء النوم(٢) . وسلم الكثيرون من فلاسفة اليونان والرومان بهذه الأساليب كلها ، فسلم بها سقراط وبعض تلامذته وأفلاطون وأتباعه من أهل الأكاديمية القديمة ، والمشاءون من تلامذة أرسطو ، وفيتاغورس وديمقريطس ، والرواقية الذين أبلوا فى الدفاع عن فنونه أحسن بلاء ، ولم يسلم بعض الفلاسفة بأساليب التكهن الصنعى وإن اعتقدوا فى صحة التنبؤ الطبيعى (كما فعل جمهرة مفكرى الإسلام) وقد كان على هذا دكياركوس Dicaearchus وكراتيبوس Cratipus(٣) وغيرهما . وكان فلاسفتهم فى الجملة لايعتبرون الاستنباط الذى تؤدى إليه مقدمات وأسباب تبرر نتائجه تنبوءًا بالغيب ، فليس كاهنا من تنبأ استناداً إلى قوانين الطبيعة وأحداثها ، من طبيب أو ملاح أو سياسى أو نحوه(٤) .

وكما اشتدت حملة الكثيرين من مفكرى الإسلام على مدعى القدرة على التنبؤ من الدجالين والمرتزقة ، فقد كان هذا هو الحال عند الرومان ، هاجمهم معتنقو التنبؤ

(1) Ibid : i. 43.
(2) Ibid : i. 6, 18 & 33 Seq.
(3) Ibid : i, 3 مع تعليقات طبعة «جارنييه» على الفقرة الثالثة ، وقارن الفقرة الخمسين
(4) Ibid : i, 50

الصحيح ومنكروه على السواء[١] . واشتد خطر هؤلاء الدجالين حتى اضطر مجلس الأعيان فى عام ٢١٣ ق . م إلى مصادرة المصنفات التى تضمنت نبوءاتهم الرخيصة[٢]

وقد حصروا الإدراك الغيبي فى الآلهة، ورأوا أنها تمنحه من تشاء من الكهان والرائين والعرافين أيقاظا، وأصحاب الرؤيا الصادقة نياما ، وقد هيمنت الآلهة حتى على أساليب التنبؤ الصنعى ...[٣]

ورد التنبؤ - ولا سيما الطبيعي منه - إلى الآلهة لا إلى النظر العقلى ونحوه ، أفضى إلى القول بقدرة بعض المجانين على كشف مجاهله ، وحرمان الحكماء من هذه الهبة[٤] كما ذهب الرواقيون ، ولكن أتباع الأكاديمية الجديدة قد رفضوا هذا الرأى[٥] .

والثابت عند جمهرة المستشرقين الذين عرضوا للبحث فى تاريخ هذه العلوم ، أن هذه العلوم قد عرفت فى الشرق القديم عند الأشوريين والكلدانيين والمصريين ومن إليهم، ثم امتزجت بما عرف عن اليونانيين والرومان من أفكار ، وانتقل التراث الهيليني الذى جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية ، كما انتقلت (على وجه الخصوص) الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثة والغنوصية ونحوها مما يساير الروح العربى، إلى مفكرى الإسلام وأثرت فى الكثيرين منهم[٦] .

---

(1) Ibid. i, 58

(2) Tite-Live XXV, I. وانظر « بوشيه لوكليرك » ج ٤ ص ١٢

(3) Ibid, i, 35-37, 51,52 & 54. أما عن التنبؤ الطبيعى فانظر الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الأول فى شيشرون

(4) Ibid, i, 38.

(5) Ibid, ii, 54. وقد عارض « شارل آبون » فى تعليقاته على طبعة « جارنييه » الفرنسية ، رأى شيشرون بنظرية مفكرى المسيحية، وهى قريبة الشبه من نظرية المسلمين .

(٦) أبان عن هذا « بوشيه لوكليرك » Bouché - Leclercq و « شيشرون » Cicero والذين اشتركوا فى مادة Divination فى دائرة معارف الدين والأخلاق وغيرهم ممن فصلوا فى بيان هذا الموضوع .

المسلمون بين القرآن وتراث القدماء :

إن معرفة المسلمين بالقرآن أسبق من معرفتهم بفلسفة اليونان والرومان لا محالة، فإذا كان القرآن قد حدد آفاق العلم بالغيب على النحو الذى أسلفناه ، واستوعب آراء المسلمين فى هذا الصدد ، فإن الشىء الذى لا يكاد يرتقى إليه الشك ــ عند من يؤمن بأن القرآن منزل وليس موضوعا ــ هو أن مرد آراء مفكرى الإسلام إلى القرآن لا إلى اليونان والرومان ــ بالغاً ما بلغ التشابه الدقيق بين وجهات النظر الإسلامى واليونانى، ومهما ثبت انتقال الهيلينية إلى العالم الإسلامى إلا إذا قيل إن القرآن نفسه قد تأثر بتراث هؤلاء القدماء وإذا نحن أهملنا النظر إلى أسبقية علمهم بالقرآن ، لما كان التشابه وحده مبرراً للجزم بنقل اللاحق عن السابق ، لأن فى العقل البشرى وحدة كفيلة بالاهتداء إلى النتائج المتشابهة رغم اختلاف الزمان والمكان معا كما سنعرف فى نهاية هذا البحث .

ولكن إذا كان من الإنصاف أن نرد للأسلام اتجاهات مفكريه فى فهم الغيب وتحديد آفاقه، فإن من الإنصاف للتراث العربى أن نرد إليه الكثير من عناصر التفسير العقلى لهذا الإدراك عند المسلمين ، فإن الدين الإسلامى لم ينزل ليفسر مثل هذه الظواهر تفسيراً عقلياً منطقياً ، وما من شك فى أن مفكرى الإسلام قد أخذوا عن الهيلينيين الكثير من وجوه التفكير النظرى ، لأن روحهم تساير الإسلام إجمالا وتنساق مع طبيعة أهله ، لا سيما وأن الكثير من عناصره مرجعه إلى الشرق القديم ، وسنعرض لهذا فيما بعد .

ملاحظات على بعض ما سلف :

حسبنا الآن أن نسجل بضع ملاحظات خاطفة :

١ — استئثار الله بالغيب ومنحه لمن يشاء من عباده ، قد أدى إلى استبعاد الصنعى من أساليبه، وأفضى هذا إلى احتقار النظر العقلى والمنهج التجريبي فى الوصول إليه ، وانتهى هذا إلى سلب الإدراك الغيبى عن الفلاسفة والعلماء وإضافته للمجانين والمعتوهين والنيام ومن إليهم من فاقدى العقل ، وارتفعت مرتبة هؤلاء حتى اقتربت من مرتبة النبوة ...!!

٢ — تفسير الفلاسفة للوحى باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، يقوم على جانب شعرى خيالى ليس من الميسور على العقل العلمى أن يسلم به .

٣ — تفسير الصوفية للإلهام يرده إلى الصناعة والاكتساب ، فإن تجريد النفس من علائق الحس يجىء بالذكر والجوع والسهر ونحوه من طرق كسبية صنعية . وربما قيل إن التجرد الذى قصدوا إليه قد توافر للكثيرين من أمثال غاندى ، فهل وقع لهم شىء من مدارك الغيب .. ؟ على أن من الإنصاف أن نقول إنهم لم يدعوا أن التجرد يؤدى إلى العلم بالغيب فى كل حالة .

٤ — ابن خلدون مفكر عبقرى باعتراف المستشرقين ، ولكنه يبدو فى هذا الفصل مجرد ناقل يحيط فاقدى العقل بهالة من التقديس ، ويناقض نفسه فيقرر حينا بأن الغيب لا يجىء صناعة ولا اكتسابا ، ثم يقرر حينا آخر بأنه يقع لمن يموت بالمجاهدة موتا صناعيا فيقتل بذلك كافة قواه البدنية بالذكر والجوع ... إلى آخره .

٥ — ربما بدا من عرض اتجاهات الفلاسفة وبعض الصوفية فى تعليل الإدراك الغيبى ، أنها لا تتفق مع ظاهر الشرع الذى قرر بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، وهذا

ـ فيما يلوح ـ مما حمل رجال الدين والسنيين من الصوفية على رفض الاتصال الفلسفى والاتحاد الصوفى معا .

٦ — إن بعض المفكرين قد أنكروا الإدراك الغيبى فى مختلف صوره ، ورد ما يبدو من آثاره إلى النفس ، أى أنه ينبع من باطن النفس ولا يفد إليها من خارج ، وربما أيدته فى ذلك بعض الدراسات السيكولوجية الحديثة والقديمة معا[١] . وسنعود إلى هذا بعد قليل[٢] .

٧ — إن التنبؤ فى عرف مفكرى الإسلام غير التنبؤ الذى يسلم به العلم ـ وهو استنباط نتيجة من مقدمات تبرر استنباطها .

وبعد ، فهذه نظرة مجملة إلى علم الغيب عند مفكرى الإسلام ، وهو على ما رأينا قسمان : طبيعى وصنعى ، فلنقف بابا خاصا لتفصيل الحديث عن كل منهما :

---

(١) قارن رأى شيشرون أحد زعماء الأكاديمية الجديدة فى الفقرة ٦٧ من الكتاب الثانى فى سفره السالف الذكر .

(٢) فصل « إدراك الغيب عند الأنبياء » .

الباب الثانى

التنبـــؤ الطبيعى

عند مفكرى الإسلام

— ١ —

إدراك الغيب

عند الأنبياء

العلم النبوى :

النبي عنـد أهل الـكتاب هو الملهم الذى يخبر بشىء من أمور الغيب المقبلة ، ولعل الأصح أن يقال إنه منّ يتاقى من الله وحياً ، إن أمرْه بتبليغه كان رسولا(١) ، وهو عند الأشاعرة من اصطفاه الله من عباده وأرسله لتبليغ رسالته(٢) ، والرسل قوم اصطفاهم الله من بين البشر وفضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل اتصال بينه وبين عباده ، ليقوموا بهدايتهم ، ويظهر الله على ألسنتهم الخوارق، وأخبار الـكائنات المغيبة عن البشر مما لا يعلمه إلا الأنبياء بتعليم من الله(٣) . ذلك أن العلم

---

(١) السيد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ٢٥

(٢) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٨ ويقول الأستاذ الإمام فى تعليقاته على شرح الجلال للعقائد العضدية ــ بعـد ذكر تعريفات للنبي ــ إن النبي يعرف بأنه إنسان فطر على الحق علما وعملا ، لا يحتاج فى هذا إلى فـكر ونظر ، وإنما يكفيه التعليم الإلهى .... وقد آخذه على هذا التعريف فى قسوة الشيخ مصطفى صبرى فى كتابه السالف الذكر (ص ٤٠ ــ ٤١ وهامش ص ١٥٥) لأن التعريف لا يتضمن شيئا من خصائص النبوة من وحى وملك مرسل وكتاب منزل ومعجزة ــ ولعل النص على التعليم الالهى فى تعريف الأستاذ الامام يخفف من حدة هذا النقد .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٩ ولـكن رأى ابن خلدون فى هـذا الصدد ، يخالف الاتجاه الحديث ، الذى ينـكر الـكرامات وخوارق العادات ، ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل ، متمشية مع سنن الـكون ، مسايرة لطبائع الأشياء ، وبهذا يمتنع وصفها بالخوارق ــ ويقال إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول ، وما عداه شبهة لا حجة ، وقد تصدى لدفع هذا الاتجاه الشيخ مصطفى صبرى ، وهاجم من أجله بعض أعلام المحدثين من رجال الدين وغيرهم فى مصر .

الإنسانى يحصل عن طريقين ، أحدهما طريق الاستدلال والتعلم ويسمى اعتباراً واستبصاراً ، ويختص به العلماء والحكماء ، والآخر يهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى[١] وقد يسمى بالتعلم الربانى ويكون بطريقين : أولهما إلقاء الوحى فى النفس التى كملت ذاتها وزال عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل والرغبة عن شهوات الدنيا والإقبال على باريها والتمسك بجود مبدعها ، فيقبل الله بحسن عنايته على هذه النفس ، ويتخذ منها لوحاً كما يتخذ من النفس الكلية قلما ينقش فيها جميع علومه ، وهذا ما يقع للأنبياء ، أما الوجه الثانى فالإلهام الذى يتوافر للأولياء[٢] ، وسنعرض للحديث عنه بعد قليل .

ولا يكون العلم الذى يتهيأ للأنبياء من باب الإلهام أو الظن أو التوهم أو الكهانة أو النجوم أو الرؤيا التى لا يعرف صدقها من بطلانها ، وإنما يكون عن وحى إلهى[٣] ، وقد قيل إن الوحى شرعا : إعلام الله لنبى من الأنبياء بحكم شرعى أو نحوه ، ولعل الأصح أن يقال إنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع التيقن بأنه من قبل الله بوساطة أو بغير وساطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه ، أو بغير صوت يبلغ أذنه ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الأخير قد يحصل من الحق بغير وساطة الملك وهو من خواص الولاية[٤] ، أو هو وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى

---

(١) معالى الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق : تعليقه على مقال التصوف بدائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية)

(٢) الغزالى ، الرسالة اللدنية ص ٣٩ — ٤٣ — الطبعة الثانية عام ١٣٤٣ هـ

(٣) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل جـ ٥ ص ١٧

(٤) ابن العربى ، فصوص الحكم ص ٣١ وما بعدها وانظر مختلف معانى الوحى فى مادة Waḥy للأستاذ « فنسنك » A. J. Wensinck فى دائرة المعارف الإسلامية

ما يطلب من غير شعور منهـا من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[١] ومن هنا قيل فى التفرقة بين الأنبياء والأولياء : إن العبد إذا لم يدر كيف حصل له العلم ومن أين حصل ، سمى علمه إلهاماً ونفثاً فى الروع ، وكان هذا خاصاً بالأولياء ، فإن اطلع المرء مع هذا العلم على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب ، سمى العلم وحياً وكان خاصاً بالأنبياء ، وإن كان العلم فى الحالين يحصل فى القلوب بوساطة الملك[٢] ، وإن قيل مع هذا إن الإلهام ليس مقصوراً على الأولياء ، فإن الوحى الظاهر ثلاثة أصناف : أولها ما ثبت بلسان الملك كالقرآن ، وثانيها ما وضح بإشارة الملك من غير بيان بالـكلام ، ويسمى خاطر الملك ، وثالثها الإلهام ، والأنواع الثلاثة حجة مطلقة ، وهذا بخلاف الإلهام ، فإنه لا يكون حجة على غيره[٣] ، والإلهام بهـذا المعنى وارد غيبى من الله المؤثر فى كل شىء[٤] ولـكن قوما من مثبتى النبوات منعوا أن تـكون النبوة عن خطاب أو نزول ملك ، لانتفاء المخاطبة الجسمانية عنه تعـالى ، لأنه ليس بجسم ، والملائـكة لا يهبطون لأنهم من العالم العلوى وهو بسيط ، كما أن العالم السفلى كثيف لا يعلو ، واختلف أصحاب هذا الرأى فيما أدى إلى النبوة عند أهلها ، فقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء بالإلهام لا بالوحى ، وهذا فاسد عند البعض ، لأن الإلهام خفى غامض يدعيه المحق والمبطل . وقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء لأن الله اصطفاهم وأكسبهم ما له من

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٠٨ وما بعدها

(٢) الغزالى فى الأحيـاء ج ٣ ص ١٦ (الطبعة الأولى عام ١٣٥٢ هـ)

(٣) التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٥٣٣

(٤) المصدر السالف ، ج ٢ ص ١٣٠٨

خواص وأسرار تخالف مجرى الطبائع ، وهذا فاسد أيضا ، لأن خفاءها غير دليل على صدقه ، ثم إنه يكون نبياً عن نفسه لا عن ربه ، وعندئذ يصبح كغيره[(١)] .

وعلى هـذا فالوحى فى معناه العام : إنباء عن أمور مغيبة عن الحس ، يقدح فى النفس دون كلفة ولا قصد[(٢)] ، ويرى فلاسفة الشريعة أن النبي من اجتمعت له خواص : أولاها أن يكون ذا اطلاع على الغيب الذى طواه الماضى ، أو أخفاه المستقبل ، وليس المراد أن يطلع على كل شيء ، بل حسبه أن يعرف بعضه ، وليس المراد أى بعض كان ، بل المقصود ما لم تجر به العادة دون أن يسبق ذلك تعلم أو تعليم[(٣)] . ومن هنا قيل إن الأنبياء يطلعون على الغيب بوحى إلهى لا شك فى صدقه، وقد قيـل إن الله يختص برحمته من يشاء من عباده ، فلا يشترط فيهم شرط ولا استعداد ذاتى ، وإن كان المعروف عند المسلمين ، أن النبوة لا تجيء اكتسابا[(٤)] ولـكن كيف أثبتوا إمكان الوحى ... ؟

إمكان الوحى :

هذه نقطة عالجناها فى الباب السالف[(٥)] وحسبنا أن نضيف الآن إلى ما قلناه ، أن بعض النفوس ـ فيما يرى البعض ـ فيها استعداد فطرى لذلك ، وليس فى هذا

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ١٦ ــ ١٧

(٢) إخوان الصفا : جـ ٤ ص ١٤٤

(٣) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون جـ ٢ ص ١٣٥٩

(٤) مصطفى صبرى : القول الفصل ص ١٤٧ وما بعدها (طبعة القاهرة ١٣٦١ هـ)

(٥) عند الحديث على « مذاهب المفـكرين فى تفسير الوحى والالهام » وكذلك « عـلة الادراك الغيبى » فى الفصل نفسه ، ثم قارن فى الفصل التالى ما ذكرناه عن « إدراك الغيب عند أهل الـكشف الصوفى » .

بدع ولا عجب ، إذ أن البديهة تشهد بأن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وليس ذلك لتفاوت المراتب فى التعليم وحده ، بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، وهـذه المقدمات تسلمنا لا محالة إلى القول بأن من النفوس البشرية ما يكون له من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به ، من محض الفيض الإلهى ، لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيـان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله وتحسسه بالدليل والبرهان[1] . والملحوظ أن النفوس قسمان : أحدهما يعوزه التعليم ، وثانيهما غنى عنه بفطرته ، وما يحتاج إلى التعليم منه ما يتأثر به وإن طال تعبه ، ومنه ما يصيب العلم سريعاً فى غير إبطاء ، ومن الناس من يستنبط الشىء من ذاته ، دون حاجة إلى معلم ، وليس ذلك ببدع ، فإن أول معلم لم يسبقه معلم ، وإنما ارتقى إلى العلم بنفسه ، دون الاستعانة بكائن ما ، ذلك أن النتيجة تخطر بباله «فيتنبه للحد الأوسط ، كأنه للذى فى نفسه من حيث لا يدرى ، أو يبتدر للحد الأوسط فتحضر النتيجة ، كمن نظر إلى سقوط الحجر إلى أسفل ، فخطر له أن الحجر ما كان ليهوى لولا اختلاف الجهتين ثم يخطر له أن اختلاف الجهتين لا يكون إلا فى البعد عن جسم والقرب منه ، ولا يمكن تصور هذا إلا بمحيط ومركز ، فيستنتج من هذا أن السماء محيطة ، ولابد من وجودها ، ومثل هذا غير محال ، وإذا خطر فليس بمحال أن يتمادى إلى آخر المعقولات . » إما فى زمان طويل أو قصير « فمن انكشفت له مثل هـذه المعقولات فى زمان قصير ، وإن تعلم على معلم أو كتاب أو نحوه ، كان نبياً ، وكان هذا معجزة له ، وهذا ممكن ومعقول ،

---

(١) محمد عبده : المصدر السالف ص ١١٠ ـ ١١١

فإن بين المتعلمين من يسبق إخوانه مع قلة جهده ، وتساوى مدة التعليم عند الجميع ، لأن شدة حدسه وقوة ذكائه ، تمكنه من التفوق عليهم ، وإن قل عنهم اجتهاده ، وإن صح هذا فالزيادة فيه من الممكنات[١] .

وفى بعض النفوس قوة لا تشغلها الحواس ، ولا تستوعبها بحيث تستغرقها وتمنعها عن أداء وظيفتها ، وقد تقوى حتى تجمع بين الكتابة والكلام فى آن واحد ، ومثل هذه النفوس قد يفتر عنها شغل الحواس ، فتطلع إلى عالم الغيب ، وتكشف بعض مجاهله فى سرعة البرق الخاطف ، وهذا النوع من النبوة ، فإن ضعفت المخيلة وعت الذاكرة ما انكشف للنفس ، دون أن تضيف إليه شيئا أو تحذف منه شيئا ، فيكون وحيا صريحا لا يعوزه التأويل ، وإن قويت المخيلة انعكست الآية ، وشابه الحال الرؤيا التى تحتاج إلى تعبير[٢] .

تلاقى النبوة والفلسفة :

والعلم الذى يجىء عن طريق الوحى ، لا يختلف فى نتائجه عن العلم الذى ينتهى إليه النظر العقلى والاستدلال المنطقى ، وإن اختلف الطريق فى كل منهما ، ومن هنا تلاقت النبوة والفلسفة ، إذ قيل إن المعرفة التى تجىء عن طريق الوحى ، إن قابلها صاحبها بما عند العلماء من حقائق ، ألفاها على اتفاق معها ، لأن العلل والمبادىء واحدة ، فإذا أخبر بها من وصل إليها من أسفل بالتفلسف ، اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة ، وبادر الفيلسوف إلى قبول ما يأتى به النبى أو الكاهن ،

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٧ — ٣١٨ — الطبعة الأولى عام ١٣٣١ هـ

(٢) الغزالى : فى المصدر السالف ص ٣١٢

لأنهما على اتفاق ، والفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل ، أما الآخر فقد انحط من علٍ ، والمسافة بين السطح والقرار واحدة ، ولكنها بالإضافة إلى من بالقرار تسمى صعوداً ، وبالإضافة إلى من فى السطح تسمى هبوطا ، والأنبياء فى هذا كله متفاوتون ، فقد يكشف أحدهم ما يطويه المستقبل بعد قرن ، ويكشف غيره ما تخفيه عشرة قرون تالية[1] ، كما يتفاوت الفلاسفة فى معرفة الحقائق وسبر غورها[2] .

نماذج من نبوءات رسول الله :

نبوءات الرسول كثيرة، فحسبنا أن نتخير القليل منها ، مما ورد فى القرآن الكريم:

١ — « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون فى بضع سنين .. » سورة الروم — قاتلهم الفرس المجوس فى أرض العرب ، حتى وصلوا طريق الحجاز وغلبوهم حتى بلغوا المدائن ، ولكن الوحى قد نزل على رسول الله يقول إن هذه الهزيمة ستتحول نصراً ، فى بضع سنين ، هى ما بين الثلاث والعشر — الله يعلم السنة واليوم والساعة التى سيقع فيها النصر، وقد أنبأ رسوله بذلك ، ولكنه لم يأذن فى إظهاره لأن الكفار كانوا معاندين ... الخ.[3]

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١٠٣ — ٤ وانظر فى تشابه غاية الدين والفلسفة : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية لمعالى مصطفى باشا عبد الرازق — ومصادره التى رجع إليها ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ساور الشك بعض المستشرقين من منكرى الوحى الالهى ، وقد تولى الرد على شبههم السيد رشيد رضا فى الوحى المحمدى ص ٩ وما بعدها ومعالى الدكتور هيكل باشا ص ٤٠ — ٤١ من كتابه حياة محمد فى طبعته الثانية .

(٣) الرازى : مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٤٦٦ وما بعدها . وقدأورد القاضى أبوالفضل عياض فى مخطوط له « شفا بتعريف حقوق المصطفى » — ٢١١٩٩ ب بدار الكتب — أمثلة كثيرة ، بالغ فيها حتى قال إن الرسول قد تنبأ بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة . . ! ! انظر من ظهر ورقة ٩٣ — ورقة ٩٦)

٢ — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنَّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعدِ خوفهم أمنا ... سورة النور آية ٥٥ .

أنبأ النبي أصحابه بأن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، سيكونون الخلفاء والغالبين والمالكين ، سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر ويستولون على ملك كسرى وقيصر .... كما استخلف من قبل زمن داود وسليمان عليهما السلام ، ويمكن لهم دينهم فيؤيده بالنصر والاعتزاز ، ويبدلهم بعد الخوف أمناً ، فيكفل لهم النصر على أعدائهم والأمان من شرهم ... الخ[1]

٣ — وقد أشرنا إلى أن البعض يقول إن رؤيا الرسول وحى إلٰهى ، والله تعالى يقول : « لقد صَدَق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ... الآية سورة الفتح آية ٢٧

رأى الرسول أن المؤمنين سيدخلون مكة ويتمون الحج ، ولم يعين وقتاً له ، ولما قص رؤياه على المؤمنين ، ظن أن دخولها سيكون عام الحديبية ، ولكن الله يعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح ، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاءً ما دخلنا ولا حاقنا ، فقال تعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ...[2]

حسبنا هذه الإشارات الموجزة ، إلى بعض نبوءات الرسول كما وردت فى التراث الإسلامى . ولكن لنا ملحوظة ينبغى أن نقف عندها قليلا :

---

(١) المصدر السالف ص ٢٨٧ — ٢٨٨ والسيد رشيد رضا فى الوحى المحمدى .

(٢) المصدر السالف ج ٧ ص ٣٩٧

القرآن والعلم :

التمس بعض المحدثين من مفكرى الإسلام فى القرآن ، نوعاً غريباً من العلم بالغيب ، فقالوا إن القرآن تنبأ بجميع مخترعات العلم ومكتشفاته ، وكافة ما وصل إليه وما يمكن أن يصل إليه البحث العلمى من أصول .. ! وأسرف أصحاب هذا النزوع إسرافاً ملحوظا ، وحمّلوا ألفاظ القرآن فوق ما تطيق ، وكاد بعضهم أن يحوّل كتاب الله إلى كتاب فى علم الفلك أو الطب أو الطبيعة أو غيرها ... ! وأيّد هذا الاتجاه « الكواكبى » ومحمد عبده ، وفريد وجدى ، والدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل وغيرهم من المعاصرين فى مصر على ما يعرف القراء .

والرأى عندنا — مع تقدير وجه الإخلاص عند هؤلاء المفكرين — أن محاولاتهم للبرهنة على أن كل ما يجِدُّ فى مجال العلم، متضمن فى نصوص القرآن، إخراج للدين عن نطاقه ، وإسراف قد يضر ولا يفيد ، لأن حقائق الدين ثابتة لا تتغير ، وحقائق العلم تتطور مع الزمان ، وتتغير بتقدم النظر العقلى ، وترقّى منهج البحث العلمى ، فإذا كنا سنربط الدين بالعلم ، كان معنى هذا أن تتغير المعانى التى تحملها آياته ، تبعاً لتغير النظريات التى ينتهى إليها البحث العلمى ، وقد علق أستاذنا الدكتور طه فى مقال ممتع له ، على محاضرة حاول الشيخ محمد بخيت أن يستنبط فيها من نصوص القرآن : كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الليل والنهار ... الخ[1]

وقال إن الأستاذ « نوردمان » Nordmann قد وضع فى السنين الأخيرة كتاباً

---

(١) طه حسين : من بعيد ص ٤٨ — ٥٢

عن مملكة السموات ، انتهى فى فصل منه إلى استحالة البرهنة على دوران الأرض بطريقة علمية قاطعة .. ! ثم عقب الدكتور على هذا بقوله : إذا انعقد الإجماع على أن الأرض لا تدور ، كما كان منعقداً على ذلك منذ قرون ، وحين نزل القرآن الكريم، فأين تذهب جهود العلماء الذين حاولوا هذا النوع من التوفيق .. ؟

بين الدين والعلم فى هذا الصدد :

هذه المحاولات ليست جديدة فى تاريخ العلاقة بين الدين والعلم ، فشت فى العالم المسيحى ، منذ أخذ رجال الدين أنفسهم بالتوفيق بين نظرية بطلميوس وموقف المسيحية من ثبات الأرض ودوران الشمس حولها .. ! فلما استيقظ النظر العقلى ونهض البحث العلمى ، وابتعث كوبرنيكوس + ١٥٤٣ وجاليليو + ١٦٤٢ رأى متأخرى الفيثاغورية من أمثال أرسطرخوس + ٣١٠ ق. م فى دوران الأرض المزدوج، ناهضت الكنيسة هذه الدعوة ، وارتكبت فظائعها مع رواد الفكر الحديث ، حتى إذا استقر العلم عند الرأى الأخير ، أخذ رجال الدين يجاهدون فى سبيل التوفيق مرة أخرى ، بين هذا الرأى الحديث ونصوص الكتاب المقدس .. ! ولم تزل بعدُ تفاصيل هذه الأحداث وأمثالها، مثار السخرية عند جمهرة المؤرخين ، فمن الحكمة ألا نزل فى خطأ زل فيه غيرنا ، وأن نتخذ من سقطات السابقين عبرة وعظة .

منابع التفكير الإسلامى فى الوحى : موقف القرآن الكريم :

من الطبيعى أن أتتبع هذه الأفكار السالفة فى القرآن ، فإن الدين لا يستقيم بغير النبوة والوحى ، والملحوظ أن تعريف الوحى على النحو الذى أسلفناه ، مأخوذ عن الآية الكريمة التى تضمنت أنواعه الثلاثة : إلقاء المعنى فى القلب ، والكلام من

وراء حجاب ، وما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله فى صورة ما ، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه علىٌّ حكيم[١] »

وأما إدراك النبي لعالم الغيب دون تعلم أو تفكر ، فإن هذا مرجعه إلى قول الله لنبيه الكريم ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، أى بغير وساطة ما ، وتشهد بهذا قصة آدم الذى لم يكتسب علما ما ، والملائكة الذين حصّلوا من العلم ما جعلهم أعلم الموجودات طراً ، فلما فاخرته ، قال ، أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ... إلى آخر ما يذكره الغزالى للتدليل على ارتفاع العلم الربانى على العلم الإنسانى[٢] . أما إمكان الوحى وتفسيرهم العقلى له ، فقد يكون وليد تفكيرهم ، وربما دخلت هذا عناصر من تراث قديم وصل إليهم ، والملحوظ أن الفارابى الذى شاد نظرية اتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وإدراك الغيب عن طريق هذا الاتصال ، قد استمد الكثير من عناصر هذه النظرية ، من نظرية الفيض أو الصدور عند « أفلوطين » كما صورها الفارابى فى بعض رسائله[٣] . وقد جرى على نهجه ابن سينا فى تصوير هذه النظرية[٤] .

---

(١) سورة الشورى آية ٥١

(٢) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣ ويلاحظ أننا نؤرخ ما يقول ، دون أن نؤيده ، لأنه لا يوثق به كمحدث .

(٣) الفارابى : مقالة فى معانى العقل نشرة الأب بويج وتصويباته .

(٤) قارن ما سنذكره فى تعليل الرؤيا الصادقة ، استناداً إلى إشارات ابن سينا ورسالته فى النبوات ثم انظر ص ١٢٩ ــ ١٣١ من كتابنا «الأحلام» .

موقف اليونان والرومان من الوحي :

عرف هؤلاء ما يشبه أنواع الوحي الثلاثة التي وردت في القرآن ، فالكلام بحيث يسمع النبي ولا يرى كما وقع لموسى ، قد وقع لسقراط كثيراً ، وكان الصوت كثيراً ما يمنعه من الإقدام على عمل ما ، وإن كان لا يدفعه إلى عمل ما ، وأحداثه في ذلك كثيرة تعيها كتب سيرته[١] ، ولم يقع هذا لسقراط وحده ... وكما وقع لليونان ، كان يحدث للرومان ، وكثيراً ما كانت تسمع هـذه الأصوات المنذرة الزاجرة في أحرج الأوقات[٢] .

وظهور الملك ، وهو ثاني أنواع الوحي ، قد يتجسم في صورة رجل مثلا ، وقد قيل إن أطياف الآلهة ، كثيراً ما كانت تظهر وكأنها مجسمة في مادة — مع أنها مفارقة لها ، وقد تظهر أحيانا غير متقومة في مادة[٣] .

أما النوع الثالث ، وهو إلقاء المعاني في النفس دون تعلم ، فقد كان مألوفا شائعا ، إذ أوتي البعض ملكة التنبؤ بحيث يستطيع أن يرى ما لا تراه العيون ، ويسمع مالا تسمع الآذان ، وقد كانت كاهنة دلفي وغيرها من هذا الصنف .

وأشياع القدرة على الإدراك الغيبي ، كانوا يرون في تفسير هذا الوحي ، مايشبه آراء المسلمين في هـــذا الصدد ، إذ قالوا إن في باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما — وهم يعزونها إلى الوحي — وبهذه القوة تتمكن النفس من كشف الغيب

---

(١) قارن شيشرون في الفقرة ٥٤ من الكتاب الاول و « بلوتارك » في حديثه عن شيطان سقراط (قارن تعليق « لويب » على هذه الفقرة) .

(٢) قارن المصدر السالف في الفقرة الخامسة والاربعين .

(٣) قارن المصدر السالف في الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الاول .

المحجب ، متى أدركها الجذب الإلهى ، أو جردها النوم من علائق الجسد[١] وقالوا كذلك إن النفوس على خلاف وتفاوت فى طبيعتها ، وأنها أقوى ماتكون فى الرائين والعرافين ومن إليهم[٢] .

وهكذا نلاحظ قيام التشابه بين آراء اليونان والرومان من جهة ، وآراء المسلمين من جهة أخرى ، وإن كان هذا لايبرر الجزم بنقل أولاء عن هؤلاء ، مادام القرآن قد استوعب بذور آراء المسلمين كلها على وجه التقريب ، وسنعرض لبقية وجوه التقابل بين الفريقين ، عند الكلام على منابع التفكير الإسلامى ، فى إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفى .

---

(١) المصدر السالف فى الكتاب الثانى فى الفقرة الثامنة والاربعين والفقرات التى تليها .
(٢) قارن المصدر السالف فى الفقرة السادسة والثلاثين من الكتاب الاول .

— ٢ —

إدراك الغيب

عند أهل الكشف الصوفى ومن إليهم

علاقة الولاية بالنبوة :

من المتصوفة من رفع الولاية إلى مرتبة النبوة ، ومنهم من فصل بينهما بفروق شكلية ، لا يكاد المرء يلحظها ، ومنهم من آثرها على النبوة ، وخلع على الولى من قدس الصفات مالا يتوافر فى الأنبياء ، ولعل تفصيل هذا يمكننا من أن نفهم مدى اطلاع الأولياء على عالم الغيب ..

الولاية دون النبوة :

يرى المعتدلون من الصوفية أن الولاية دون النبوة ، ويصرحون باستئثار الأنبياء بالوحى ، واستئثار الأولياء بالإلهام ، ويقررون بأن الإلهام دون الوحى ، ومن أجل هذا كان الولى دون النبى[١] والولاية درجة مختصرة من النبوة[٢] ، ويرون أن الأنبياء يمتازون على الأولياء ، بأنهم يعرفون مصدر العلم الذى يهجم على قلوبهم ، ويتبينون كيفية حصوله ، ويرون الملك الذى يلقى بالعلم إلى نفوسهم[٣] .

---

(١) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣ وردد أقواله ابن خلدون .

(٢) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٤ طبعة عام ١٣٤٣ هـ

(٣) الغزالى : الأحياء جـ ٣ ص ١٦

الولاية صنو النبوة :

ولكن المتطرفين من الصوفية لايسلمون بهذا الرأى فيما يظهر ، بل يرفعون الولاية إلى مرتبة النبوة ، بل يجعلون النبوة دون الولاية ... فهم يقولون إن الولاية صنو النبوة ، لأن من الوحى ما يلقيه الله إلى البشر من غير وساطة ، فيُسمعهم فى قلوبهم حديثا لايأخذه ولا يصوره خيال ، ولا يعرفون مصدره ولا سببه ، ولكنهم مع هذا يعقلونه ويدركون مابه[1] بل ليست الولاية فى واقع الأمر إلا باطن النبوة[2] لأن النبوة ظاهرها الإنباء وباطنها التصرف فى النفوس بالحق ، وإجراء الأحكام عليها ـ وهذا هو الولاية[3] ، والنبوة قسمان : نبوة تشريع ونبوة ولاية ، فالنبوة كالرسالة من حيث أنهما قد انقطعتا من وجه ، هو مسمى النبي والرسول ، ولهذا قال النبي : لا رسول بعدى ولا نبي[4] ، وقصد بذلك أن ليس بعده مشرع يحلل ويحرم[5] ، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بممات الرسول[6] ، وبقيت نبوة الولاية ، وهى مجرد إخبارات إلٰهية يجدها العبد فى نفسه ، من وجوه الغيب أو تجليات لايتعلق بها حكم يحلل شيئاً أو يحرمه ، وتكون بغير روح ملكى[7] ، ولا يسلمون

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ وإن كان هذا لايتنافى مع رأى الغزالى السالف الذكر .

(٢) ابن عربى : فصوص الحكم ص ٣٩

(٣) التهانوى ، كشاف الاصطلاحات جـ ٢ ص ١٥٢٨ ، ١٥٢٩

(٤) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

(٥) المصدر السالف ص ٧٠ و ٤٩٤

(٦) المصدر السالف : ص١١٨ وقد ردد رأيه الشعرانى فى اليواقيت والجواهر جـ١ ص٢٢

(٧) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٣٦ ـ ٧

بأن الأولياء لا ينزل عليهم ملك ، ويزعمون بأن الملك الذى ينزل عليهم هو ملك الإلهام ، وقد فصل ابن عربى ضروبه وعاب على الغزالى قوله : إن الملك ينزل على نبى ولا ينزل على ولى ، وردّ خطأ الغزالى فى ذلك إلى عدم الذوق ؛ وزعم بأن ملك الإلهام قد نزل عليه ، وإن لم يحمل أمراً ولا نهيا[١] ، وردد تلامذته رأيه[٢] مع أن الغزالى فيما يلوح لنا لم ينكر الملك ، وإنما أنكر رؤية الولى له ، إذ قال « فإن العلم إنما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة »[٣] ، ويقرر فى مكان آخر بأن الاتصال بالله إما أن يكون مباشرة أو بواسطة ملك[٤] .

الولاية أسمى من النبوة :

بل إن ابن عربى لم يكتف مع تلامذته بذلك ، بل ضمت آثارهم نصوصا تنبىء بإيثار الولاية على النبوة .. !![٥] فالنبوة تقوم فى هذه الدنيا ، أما فى الآخرة فإن التشريع ينقطع وتبطل أحكامه ، وهناك يظهر أن الولاية خير من النبوة .. ! وقد سمى الله نفسه ولياً ولم يسم نفسه نبياً ، ولله عباد ليسوا بأنبياء ، ولكن النبيين يغبطونهم بمقامهم ، فهم بغير أتباع لفنائهم فى الدعاء لله ، فإذا حل يوم البعث لم يدركهم الفزع على أنفسهم أو أممهم ، كما هو الحال فى أنبياء التشريع[٦] ، وليس ينبغى أن يقال للولى إنه وارث ، لأنه لا يرث النبوة عن نبى ، ولكن الحق يأخذها

(١) المصدر السالف : ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٩

(٢) الشعرانى ، فى اليواقيت جـ ١ ص ٧٤ ــ ٧٦ طبع المطبعة الميمنية ١٣١٧ هـ

(٣) الغزالى : الأحياء جـ ٣ ص ١٦

(٤) الغزالى : تهافت الفلاسفة ص ٦٢

(٥) ينبغى أن ننص فى هذا الصدد ، على أن فى كتب ابن عربى والشعرانى نصوصا كثيرة أخرى ، تنص صراحة على أن الولاية فى كل صورها أدنى من النبوة .

(٦) الشعرانى : اليواقيت والجواهر جـ ١ ص ٨٠ ، وابن العربى فى الفتوحات ص ١٦٥

أولا ثم يردها للولى ، ليكون ذلك أتم وأكمل فى حق الأولياء ، إذ يأخذون علمهم عن الحى الذى لا يموت ، ولا يأخذونه ميتا عن ميت[١] .

إلى هذا ذهب المتطرفون من المتصوفة ، فى بعض ماضمت آثارهم من آراء ، وإن كانوا – فيما يلوح – يخشون الاتهام بالزندقة ، ويرهبون مغبة التصريح بهذه الآراء ، فيقررون فى مواضع أخرى ما ينقض دعواهم ، ويصرحون بأن الولاية بالغا ما بلغت ، إنما تستمد من النبوة نورها ، ولا تلحق نهايتها بداية النبوة أبدا[٢] .

هذه هى علاقة الولاية بالنبوة عند أهل التصوف ، ومنها نرى أنهم رغم تفاوتهم فى تقدير الولاية ، فهم على اتفاق فى ربطها بالنبوة ، وتقرير العلم الذى يجىء أهلها إلهاما وكشفا ، دون نظر عقلى أو استدلال منطقى .

الكشف عند الصوفية[٣] :

الكشف اصطلاحا : هو الاطلاع على ماوراء الحجاب من المعانى الغيبية والأمور الحقيقية ، وهو صورى ومعنوى ، والأول يقع فى عالم المثال من طريق الحواس الخمس ، عن طريق المشاهدة أو السماع كما وقع للنبى ، حين كان يسمع الوحى كلاما أو كصلصلة الجرس ، أو على سبيل الاستشفاف وهو التنسم بالنفحات الإلهية ، والتنشق لفتوحات الربوبية ، أو على طريق الذوق ... وأما الكشف الصورى فقد يتصل بالأمور الدنيوية ، فيسمى رهبانية ، لاطلاع أهله على الحوادث الدنيوية بحسب

---

(١) ابن عربي : الفتوحات ص ٣٣٥ ويردد الشعرانى أقواله

(٢) الشعرانى : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٦٤

(٣) قارن « إمكان الوحى » فى الفصل السالف ، و « علة الإدراك الغيبى » و «مذاهب المفكرين فى تفسير الوحى » فى الباب الأول من هذا الكتاب .

رياضتهم ومجاهداتهم ، وهذا استدراج ومكر بالعبد ، وقلما تقع هذه المكاشفات مجردة من الاطلاع على المعانى الغيبية . وأما الكشف المعنوى المتجرد من صور الحقائق ، الحاصل من تجليات الاسم العليم والحكيم ، فهو ظهور المعانى الغيبية والحقائق العينية ، وهو أيضاً مراتب كالحدس والنور القدسى ، وقد فصل ابن عربى فى شرح هذا كله(١) .

وقد جرى الصوفية على القول بالعلم الذى يجىء عن طريق الكشف ، فى مقابل العلم الذى يجىء عن طريق البحث والبرهان ، ويشبه الكشف عندهم « العيان » و « الذوق » و « الحدس » و « الإلهام » وهى ألفاظ شائعة فى كتب الصوفية من الغزالى والسهروردى والشيرازى وغيرهم . وهم يرون أن النفس إذا انجذبت تجافت عن دار الغرور ، وأقبلت على السلوك إلى الله ـ كما يقول الغزالى ، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجذب عند الكلام على منابع التفكير الإسلامى .

عوائق الكشف الصوفى :

وإذا كان الله تعالى يصطفى للرسالة والنبوة من شاء من عباده ، دون شرط أو استعداد ذاتى على نحو ما عرفنا من قبل ، فإن الثابت عند مفكرى الإسلام ، أن النفس بطبيعتها مهيأة لقبول الوحى والإلهام معا ، معدة لارتياد مجاهل الغيب المحجب ، متى تخلصت من علائق البدن فى يقظة أو منام ، لأن على القلب غشاوة من شهوات الجسم ومشاغل الدنيا ، وإنما تنقشع عن عيون الأنبياء والأولياء الممتازين ، بهذا تحصل المعلومات بإلهام إلهى لبعض القلوب على سبيل المباداة أو المكاشفة ، وأقصى

---

(١) ابن العربى : فصوص الحكم ص ٢٨ ـ ٣١ (شرح الشيرازى)

الرتب فى ذلك رتبة النبي الذى تنكشف له الحقائق دون تكلف أو اكتساب[١] ، وما منعت أنوار العلوم عن القلوب ، لأن الله ضنين بها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ولكنها تحتجب لخبث القلب وكدره ومشاغله الدنيوية ، والقلوب التى تمتلئ بغير الله ، لاتدخلها المعرفة بجلال الله ، لأن القلوب كالأوانى إن امتلأت بالماء لم يدخلها الهواء[٢] ، وليس هذا وحده الذى يعوق الكشف ، فإن القلب محل العلم ، وهو بالإضافة إلى الحقائق كالمرآة بالإضافة إلى صور الأشياء ، فقد يمنع ظهور الصور فيها نقصان صورة المرآة أو صدؤها وكدورتها أو عدم مواجهة الصورة للمرآة ، أو لوجود حجاب بينهما ، أو للجهل بجهة الصورة ، وكذلك الحال فى القلب ، لاتنكشف فيه الحقائق لنقصانه ـ كقلب الطفل ، أو لما يعلوه من شهوات تطفىء إشراقه ، أو انصرافه إلى غير الله ، أو قيام حجاب من اعتقادات تقليدية جمدت فى النفس ، وصارت حجابا يمنع من كشف شيء يخالف ما تلقاه تقليدا ، وقد حجب هذا أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، وجل الصالحين المتفكرين فى ملكوت السموات والأراضين ، وقد يمنع الكشف جهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب[٣] .

طريقة الكشف عند الصوفية :

هذه هى عوائق الكشف الصوفى ، فإذا اتقينا شرها ، أمكننا أن نبلغ مرتبة العرفان التى يبلغها الأولياء ، لأن الأصل فى الولى أنه الواصل إلى مرتبة العرفان ، عن الطريق الموصلة إلى سبيل تلك المرتبة فى عرف الصوفية ، والواصل إليها تنكشف

---

(١) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ٧

(٢) المصدر السالف ص ٨

(٣) الغزالى : الإحياء ج ٣ ص ١١ و ١٢

له الحجب ، ويشهد من علم الله ما لا يشهد سواه[١] وهذا أمر ميسور ، لأن النفس البشرية بطبيعتها مهيأة لقبول الإلهام ، كما هى معدة لقبول الوحى ، وتكون أعظم استعدادا لذلك كلما كانت أصفى جوهرا وأذكى فهما ، فبهذا تكون أخلاق المرء وسجاياه ، أدنى إلى أخلاق الكرام وأشبه ، ويكون مذهبه واعتقاده أشد تحققا باعتقاد الأنبياء ومذهب الحكماء ، وتكون أعماله وسيرته أشد شبها بأفعال الملائكة وسيرتها ، بهذا يسهل فهم النفس لوحى الأنبياء وإلهام الملائكة . ولما كان هذا كله يتفاوت قوة وضعفا ، فقد تفاوتت النفوس بين الأنبياء والصديقين والمؤمنين الأبرار، وهكذا تتفاوت النفوس فى مراتب النبل ، وبالتالى فى الاستعداد لقبول الوحى والإلهام ، والاطلاع على خفايا الغيب المحجب ، وطريق ذلك أن يصلح المرء ما فسد من أخلاقه فى صباه ، وأن يلتزم السلوك العادل فى تصرفاته ، ثم ينظر فى العلوم الحسية حتى يحسنها ، ثم فى الأمور العقلية حتى يجيدها ، ويستغلها فى طرد الفاسد من آرائه ، بهذا يرقى إلى العوالم السمائية ، فما يمنع النفس عن الارتقاء إلى ملكوت السماء ، إلا نوازع الجسد وتعلق النفس به ، واستعباد شهواته لها[٢] فإن المرء الذى يدين بطاعة الله علما وعملا ، متى فاضت نفسه ، نجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتفعت إلى عالم الأفلاك ، وأضحت ملكا بالفعل ، والملائكة لايسلمون إلاعلى أبناء جنسهم، ولا يخاطبون إلا من شاكلهم ، شأنهم فى هذا شأن الإنسان الذى لا يتبادل التحية مع حيوان أو جماد . وإذا كان الله يذكر

---

(١) القشيرى فى رسالته ومصطفى باشا عبد الرازق فى تعليقه على مقال التصوف للأستاذ ماسينيون بدائرة المعارف الاسلامية ــ وقارن مختلف معانى الولى ، فى مادة Wali للبارون « كارادى فو » Carra de Vaux فى دائرة المعارف الاسلامية

(٢) اخوان الصفا : جـ ٤ ص ١٧١ ــ ١٧٤

سلام الملائـكة على أهل الجنة ، فإن ذلك على سبيل التـكريم لهم ، ونفوس المؤمنين العارفين بالله الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ونعيمها ، ليست إلا ملائـكة بالقوة إن فارقت أجسادها كانت ملائـكة بالفعل « تحن إلى مخلفيها من الأولاد وقراباتها وتلامذتها ، وأهل دينهـا ومذهبها الصالحين منهم » وبذلك يكون الاتصال بين الملائـكة وكرام النفوس ، وبهذا ينـكشف الغيب المحجب(١) .

ولـكن لندع الآن الصوفية أنفسهم يتحدثون بلغتهم ، وهم وإن اختلفت وجهات نظرهم فى بعض الاتجاهات ، متفقون فى تصوير الفـكرة ، ولعل أظهر مدارسهم فى هذا الصدد، مدرسة التصوف السنى التى أسسها الغزالى المتوفى سـنة ١١١١ م ، ثم المدرسة الإشراقية التى أنشأها السهروردى المتوفى سـنة ١١٩١ م ، فلنعرض موقف المدرستين كما يتمثل فى زعيم كل منهما :

الـكشف عند أهل التصوف السنى :

بدأ التصوف الإسلامى عمليا ، يتمثل فى العـكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا ... إلى آخر مايقوله ابن خلدون ، ثم أدركته العناية بالأبحاث العقلية ، وتسللت إليه الأنظار الفلسفية فى المعرفة والوجود ، ولـكن أهل السنة قد تنكروا لهذا النوع من التصوف الفلسفى ، وضاقوا بالنظريات الفلسفية الجامحة ، وتصدى الأشاعرة لإنـكار هذا الجموح ، وانتصر لحملتهم « الغزالى » حجة الإسلام ، وإن أبقى على التصوف الذى يساير التعاليم الدينية ، ويتمشى مع روح السنة ، وبهذا آثر العمل على النظر ، وغلب التعبد على التأمل ، ورجح الاهتمام

(١) اخوان الصفا : جـ ٤ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ، ١٦٧

بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والحرمان ونحوه[١] ، وجعل الايمان ـ لا التفلسف ـ طريقاً إلى الله ، ورأى أن القلب لا العقل هو الدرّاك للحقيقة ، وهاجم علماء الكلام والفلاسفة معا ، وإذا كان قد قرر قيام الحدس والفيض والإلهام أداة لإدراك العالم الباطن ، فقد صرح مراراً بأن هـذا لا يجىء باتحاد أو حلول أو نحوه ، إذ فرق بين العـلم الذى يحصله العلماء والحكماء بالتعلم والاستدلال ، وبين العلم الذى يهجم على قلب النبى أو الولى دون نظر أو تعلم ، ورأى أن الطريقة التى تنكشف بها الحجب عن أعين القلوب ، ليتجلى ماهو مسطور فى اللوح المحفوظ ، هى التعبد وليست التأمل ، وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت ، وأن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، ولهذا لم يحرصوا على دراسة العلم ، واستيعاب ماصنفه المصنفون ، بل اعتبروا الطريق قائما فى تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، وقد انكشف الأمر للأنبياء والأولياء ، وفاض النور على صدورهم ، لا بالتعلم والدراسة وتأليف الكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها[٢] فان اكتساب العلم اللدنى يكون بارتفاع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح ، فإذا كان القلب فارغا من علائق الحواس طالع جواهر الملكوت[٣] ، والطاقة التى يطل منها المرء على عالم الملكوت ، قد تنفتح إبان النوم فى رؤيا صادقة ،

---

(١) انظر كتابنا « الشعرانى ـ إمام التصوف فى عصره » ص ٧ ـ ٨ و ١٠٧ ـ ١٠٨ (طبعة أولى ٩٤٥)

(٢) الغزالى : الإحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٥ والإحياء ج ٤ ص ٤٣٩

وقد تنفتح أثناء اليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة ، وتجرد من الشهوات وقبيح الأخلاق ، واعتزل الناس وعطل طرق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه ، وجعل القلب فى مناسبة عالم الملكوت ، وقال بقلبه لا بلسانه : الله الله الله مواظباً على هذا ، عندئذ تنمحى الكلمة بحروفها ويبقى معناها مجردا فى قلبه ، حاضراً فيه كأنه ملازم له لايفارقه ، وعندئذ يتعرض لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى بعد هذا إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة بهذه الطريق ، كما فتحها على أنبيائه وأوليائه ، وعندئذ تلمع لوامع الحق فى قلبه ، وتنفتح الطاقة ويبصر فى اليقظة ما يبصره فى النوم ، وينكشف له ملكوت السموات والأراضين ، وتشهد بهذا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهذا هو طريق الصوفية ، وهو درجة قد اختصرت من طريق النبوة ، وهى لاتقع بالتعليم، بل بالذوق وحده ... وهكذا ترجع الطريق إلى تطهير محض وتصفية وخلاء ثم استعداد وانتظار[١] .

والواصلون إلى مرتبة العلم اللدنى فى غنى عن مشقة التحصيل وتعب التعليم ، فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلا[٢] .

وبهذا يكون الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وعلوم العلماء والحكماء ، أن الأولى تجىء من داخل القلب ، من الباب الذى ينفتح إلى عالم الملكوت ، أما علم الحكمة فيجىء من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ... ويمضى الغزالى فى تأييد هذا الاتجاه ، مدللا على صحة رأيه بشواهد يستقيها من الشرع[٣] ...

---

(١) الغزالى : من نصوص له فى كيمياء السعادة ص ١٦و١٧ والإحياء جـ ٣ ص ١٦ و ١٧

(٢) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٥

(٣) الاحياء ج ٣ ص ١٨ وما بعدها .

والرأى عنده أن التعلم بغير معلم ممكن لا محالة ، فإن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة خال ساذج ، لا خبر معه من عوالم الله ، ووسيلة إدراكها هى الحواس(١) ، والعلم اليقينى لا يدرك بهذه الأدوات ، ويستعرض الغزالى العلم اليقينى الذى ينبغى طلبه ووسائل إدراكه ، ومدى الاطمئنان إلى قدرة وسائل الإدراك على كشف الحقائق ، حتى إذا انتهى إلى الشك فى الحواس ثم فى العقل ، قال إن من الممكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحال ، تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة هى مايدعى الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لا توافق المعقولات — وهكذا غمر الشك الغزالى حتى تحرر منه « لا ينظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » وهذا النور ينبجس من النور الإلهى فى بعض الأحايين ، ولهذا وجب الترصد له والجد فى طلبه ، فليس من المجدى أن تحاول إدراك الأوليات العقلية والبدهيات ، بنظم كلام وترتيب أدلة ، فهى حاضرة فى الذهن والحاضر إذا طُلب فُقد » وعلى هذا فإن إدراكها يكون بالحدس الباطنى ، أو بالنور الذى يقذفه الله فى الصدور(٢) .

وقد كان الغزالى بهذه الدعوة الجريئة ، أكبر من مهدوا للاتجاه الذى عرف

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٣٦ — ١٣٧ (الطبعة الثانية لمكتب النشر العربى بدمشق) حيث يستعرض الحواس بحسب خلقها فى الطفل محددا وظيفة كل منها على حدة .

(٢) الغزالى ، المنقذ من الضلال ص ٦٥ — ٧٥

بعده عنـد الصوفية فى عصور الاضمحلال ، وهو الذى يجهر أصحابه بمناهضة التعلم ومقاومة النظر العقلى ، ويصرحون بأن الأمية تجعل صاحبها أكثر استعداداً لتلقى الإلهام ، وأن العلم المكتسب يعوق التهيؤ لاستقبال العلم اللدنى .. !

بل إنا نرى عند بعض من أعقبوه من الصوفية المتفلسفين نصوصاً تشبه النصوص التى أسلفناها عن الغزالى ، فابن عربى يصرح بأن العلم الذى لا يحصل إلا عن عمل وتقوى وسلوك ، هو المعرفة اليقينية الحقة ، لأنه يكون عن كشف محقق لا تدخله الشبه ، أما العلم الذى يحصل عن نظر فكرى ، فإنه لا يسلم من الشبه أبداً (١) بل لقد كان ابن عربى يأخذ على الفقهاء فى عصره ، أنهم يشتغلون بالجدال « ينوون بذلك تلقيح خواطرهم » (٢) وما نظن أن هـذه النغمة كانت قبل الغزالى واضحة سافرة على هذا النحو .

ومن هذا نرى أن الغزالى قد أقر الإلهام والحدس أداة للعلم اللدنى ، ورفض أن يجى هـذا عن تعلم واكتساب ، أو باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال كما ذهب الفلاسفة أو باتحاد الناسوت باللاهوت كما ذهب بعض الصوفية .

الكشف عند أهل التصوف الأشراقى :

يعبر السهروردى عن مذهبهم فيقول « إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت (أى عالم المجردات والمعقولات والكليات ، وهو عالم الغيب أو العالم العلوى أو السماوى) وأن ما يشغلها عن عالمها ، هذه القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس

---

(١) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٩٣

(٢) المصدر السالف ص ٤٥٩

بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحيانا إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيهـا المقدس ، وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منهم المغيبات فى نومها ويقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش ...[1] وهكذا يتصل المرء بالنفوس الفلكية ويدرك شتى المعلومات والمعارف فى عالم الغيب ، وتلك هى غاية التصوف التى يسعى إلى تحقيقها الإشراقيون ، وهى شبيهة بغاية الفيلسوف فى السعادة التى تتحقق عند أهل الفلسفة الإسلامية ، من الاتصال بالعقل الفعال كما أشرنا من قبل .

موقف الفقهاء من الصوفية :

هذه النتيجة التى انتهى إليها الصوفية فى تقرير الكشف عن عالم الغيب ، لا يرفض التسليم بها خصومهم من الفقهاء ، ولقد صدق الأستاذ ماسينيون حين قال إن أهل السنة لم يقولوا فى الواقع بمروق المعتدلين من الصوفية ، فقد دأب أهل السنة على الاهتداء فى معاملاتهم وعباداتهم برسائل معروفة لأهل التصوف ، وكان فقهاؤهم الذين اشتدوا فى الحط من شأن المتصوفة ، أمثال ابن الجوزى (+٥٩٧هـ-١٢٠٠ م) وابن تيمية (+ ٧٢٨ هـ - ١٣٢٧ م) وابن القيم (+ ٧٥١ هـ ١٣٥٦ م) يقدرون الغزالى ويعتبرونه حجة فى مسائل الأخلاق ، وقد صب المتأخرون من فقهاء أهل السنة غضبهم على مريدى ابن العربى لقولهم بالوحـــدة[2] ولنشر إلى موقف

---

(١) السهروردى ، هيا كل النور ص ٤٣ و ٤٤

(٢) ماسينيون : مادة تصوف فى دائرة المعارف الاسلامية ، وإن كان ابن تيمية قد هاجم الغزالى من جراء آرائه الفلسفية ، المنبثة فى « المنقذ » و « الأحياء » الذى تضمن الكثير من الأحاديث النبوية التى لا يوثق فيها — وحمـل عليه من جراء خلطه التصوف بالفلسفة وانظر مادة ابن تيمية فى دائرة المعارف الاسلامية .

ابن تيمية بالذات ، فهو حنبلي متطرف من أهل الظاهر فيما لاحظ جولد تسيهر فى كتابه عن عقيدة الإسلام وشريعته ، وقد فقه الحديث حتى قيل إن الحديث الذى لا يسلم بصحته ابن تيمية لا يعتبر صحيحاً ، واشتدت حملاته على المتطرفين من الصوفية ، وأفتى بهرطقة القائلين بنظرية الاتحاد ، وكان مصيره السجن ، وكانت آراؤه أساساً للوهابية والسنوسية بعد ، وكان يحمل على ابن عربى ومن سلك مسلكه فى فهم الولاية ، وإيثارها على النبوة[1] ، فهو يشرح معنى الوحى فى رسالة له ، ثم يعقب قائلا : والوحى بالمعنى السالف للمؤمنين جميعاً ، ثم يستشهد بالآيات القرآنية على صحة ما يقول[2] ، وليس فى هذا الموقف مثار لدهشة ، إذ كان ابن تيمية يرى أن صريح العقل لا يخالف صريح النقل بحال ، ووضع لتأييد هذا الرأى كتابه « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول[3] . ويلوح لنا ـ مع هذا كله ـ أنه كان يسلم بالإلهام الصحيح عند بعض أهل الذوق والمكاشفة ، ويستشهد على صحة تسليمه ، بالموثوق به من الأحاديث النبوية ، حتى إذا فرغ من استشهاداته عقب قائلا (والمقصود أن هذا الجنس واقع)[4] ولكن معالى أستاذنا مصطفى باشا

---

(١) ابن تيمية : رسالة الفرقان ص ١٤٧ و ٢٠ و ٢١ وهو يقول فى رسالته عن حقيقة مذهب الاتحاديين ، إن مقالة ابن عربى مع كونها كفراً ، فان صاحبها أقرب أصحاب الاتحاد ونحوه إلى الاسلام ، لما يوجد في كلامها من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه . انظر ص ١٢٢ من فيلسوف العرب .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٣) معالى مصطفى باشا عبد الرازق : « فيلسوف العرب والمعلم الثانى » ص ١٢٠ وهو يستند إلى استشهادين رائعين ، أما الكتاب المشار إليه فى صلب الكلام فمطبوع على هامش منهاج السنة النبوية (مطبعة بولاق ١٣٢١ هـ)

(٤) رسالة الفرقان ص ٥١ ـ ٥٤

عبد الرازق ، يقول فى بحثه الشائق عن ابن تيمية « وليس يرى للمعرفة طريقا غير الوحى والعقل ، أما الكشف الصوفى فهو ينكره ويرده بالدليل العقلى وبالدليل السمعى معا »[١] .

وهكذا يسلم ألد خصوم الصوفية من أهل السنة الحنابلة ـ فيما يلوح ـ بإمكان الكشف الصوفى الذى ييسر لأهله معرفة الغيب المحجب .

أشباه الصوفية من مدركى الغيب

إذا كان الاطلاع على عالم الغيب ، يقع بعد انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس من علائق البدن ، والانشغال عن التفكير العقلى ، فقد يتوافر هذا دون سلوك هذه الطريق الوعرة ، التى يرسمها أهل التصوف لبلوغ هذه الغاية ، ومن أجل هذا كان لا بد لهم ـ تمشياً مع منطقهم ـ من التسليم باطلاع كل من يتوافر له هذه الصفات على عالم الغيب ، فقالوا ـ أو قال بعضهم ـ بقدرة صنف من المجانين والمعتوهين من مريدى الصوفية والمرضى والقتلى على الكشف الغيبى ، وقد قرر هذا رجل من أنضج مفكرى الإسلام عقلا وأعمقهم تفكيراً ـ هو ابن خلدون ـ وسبقه إلى بعض ما قال رجل عرف بالاطلاع الواسع والتفكير الغلاب، هو الغزالى الذى ينقل هذا الرأى عن الفلاسفة .

إدراك الغيب عند المجانين والمصروعين :

تكون نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم فى أغلب الأحوال،

---

(١) كتاب معاليه السالف ص ١٢١ (طبعة الجمعية الفلسفية ١٩٤٥)

ولضعف الروح الحيوانى فيها ، وبذلك تكون غير مستغرقة فى الحواس ولا منصرفة إلى التفكير فى نقصها[١] أو يغلب على مزاج هؤلاء المجانين ومن يشبههم من المصروعين ، اليُبْس والحرارة حتى يصرفه بغلبة السواد عن موارد الحواس ، فيكون صاحبه مع فتح العينين كالمبهوت الغائب الغافل عما يرى ويسمع ، وذلك لضعف خروج الروح إلى الظاهر ، ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شىء من الغيب ، فيجرى على لسانه وهو فيما يشبه الذهول[٢] ، ولكن ربما زاحم النفس على التملق بالبدن روحانية أخرى تتشبث به ، وتضعف هذه عن ما نعتها فينشأ عن هذا ما نراه من تخبط ، ويختلط الحق بالباطل ، لأن اتصالهم بعالم نفسه لا يتم ، وإن فقدوا الحس بغير الاستعانة بالتصورات الأجنبية التى يحيك الخيال خيوطها[٣] .

إدراك الغيب عند المتوهين من مريدى الصوفية :

وأولئك أشبه بالمجانين منهم بالعقلاء ، ومع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وقد شهد بهذا من فهم عنهم من أهل الذوق ، ولا تكليف عليهم فليسوا مقيدين بشىء ، ومن أجل هذا أنكر بعض الفقهاء أنهم على شىء من المقامات ، لأن الولاية فى عرفهم لا تجىء بغير عبادة ، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء بغير عبادة أو نحوها ، ومن أجل هذا وقعت لهم العجائب فى مجال الإخبار عن الغيب . . !

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٣

(٢) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٢ و ٣١٣

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٤

والفرق بين هؤلاء البهاليل المعتوهين وبين المجانين حقا ، أنهم لم يفقدوا نفوسهم الناطقة ، ولكنهم فقدوا العقل الذى يناط بالتكليف ، ويعرف المرء به وجوه معاشه واستقامة منزله ، ومن فقد هذا فليس بفاقد نفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته ، وأظهر ما يميزهم من المجانين أنهم لا يكفون عن الذكر والعبادة ، وإن وقع منهم هذا على غير وجهه الشرعى لسقوط التكاليف عنهم ، ويختلفون عن البله منذ نشأتهم ، ولا يعرض لهم الجنون فى مراحل العمر لعوارض بدنية طبيعية ، وهم يكثرون من التصرف فى الناس بالخير والشر ، لأنهم لا يتوقفون على إذن لسقوط التكليف عنهم ، وليس المجانين على شىء من هذا كله — فيما يرى ابن خلدون[١] .

ومن أجل هـذا يقول « لين » Lane فى معرض حديثه عن المصريين ، إن المعتوه idiot أو الأبله fool يعتبر فى عرف العامة كائنا عقله فى السماء ، وجزؤه الكثيف — جسمه — يعيش بين عامة الناس ، ومن ثم يعتبر حبيب الله — أى ولياً[٢] .

إدراك الغيب عند المرضى والمشرفين على الموت :

يرى فريق من أهل البحث ، أن بعض معقولات المصابين بأمراض خاصة ، تتمثل فى خيالهم ، وتصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ، ولا شىء من ذلك فى مجال الحس[٣] ، ويلاحظ ابن سينا فى إشاراته أن بعض الممرورين والمرضى ، يرى صوراً لا تتصل بإحساساتهم الخارجة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ و ٩٧

(2) E. w. Lane, Modern Egyptians p. 234.

(٣) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١١٢ لعله يقصد ما يعرف فى علم النفس بالأوهام المجسمة Hallucinations

فى كثير ولا قليل ، ورد هذا إلى المخيلة باعتبارها مصدر الصور الباطنة[١] . وثبت فيما يقولون بتجارب الماديين من الأطباء ، أن بعض هؤلاء المرضى يخبر بالمغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق ، والحوادث فى هذا الصدد تثير العجب[٢] .

فأما القتلى فإنهم حين تفارقهم رؤوسهم وأبدانهم ، يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب ، ويقال إن بعض الجبابرة الظلمة ، قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلامهم إبان قتلهم ، عواقب أمورهم فى أنفسهم ، فأنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة ، وقيل إن الآدمى إذا أقام فى دن مملوء بدهن السمسم أربعين يوما ، يغذّى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى إلا عروق رأسه ، وخرج من ذلك الدهن وجف عليه الهواء ، فإنه يجيب عن كل ما يسأل عنه من عواقب الأمور خاصة وعامة ، ورغم أن هذا من أفعال مناكير السحرة ، إلا أنه يكشف لنا عن عجائب العالم الإنسانى ، ومن ذلك ما نراه عند من يحاولون بالمجاهدة أن يموتوا موتاً صناعياً ، فيعملون على قتل جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التى تلوثت بها النفس ، ثم تغذيتها لتزداد قوة ، ويقع هذا بجمع الفكر وكثرة الجوع ، والمعروف على سبيل اليقين أن الموت متى نزل بالبدن ، ذهب الحس وزال حجابه ، واطلعت النفس على ذاتها وعالمها ، فهم لهذا يحاولون أن يحصلوا على هذا بالاكتساب ، ليقع قبل الموت ما يقع بعده ، وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب[٣] وليس عجيبا أن يؤدى الموت إلى كشف الغيب ، فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى

(١) ابن سينا فى إشاراته ولعله نقلها عن أرسطو — أنظر الفقرة الثانية والخمسين من الكتاب الأول فى العلم بالغيب لمؤلفه شيشرون —

(٢) قارن رشيد رضا فى هامش له على رسالة التوحيد ص ١١٣

(٣) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٥

بعينه الظاهرة ، بل يرى بالعين التى خلقت فى كل قلب، وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات[(١)] ، وبين القلب واللوح المحفوظ الذى نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة ، يقوم حجاب قد ينكشف فى المنام أو اليقظة ، ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب ، إنما يكون بالموت[(٢)] ، فالقلب إن مات بموت صاحبه ، لم يبق ثمة خيال ولا حواس ، فيصير بغير وهم ولا خيال ، فتنفتح الطاقة التى يطل منها المرء على عالم الملكوت[(٣)] .

منابع الكشف الصوفى فى التراث القديم[(٤)] :

اختلف الذين حاولوا تأريخ التصوف الإسلامى ـ مستشرقين وشرقيين ـ فى فى المنابع التى صدر عنها[(٥)]، وحسبنا أن نتحدث عن المنابع التى صدر عنها التصوف فى مرحلة من مراحل تاريخه ، هى التى كان فيها أداة إلى الكشف الغيبى :

يستعرض معالى مصطفى باشا عبد الرازق أطوار التصوف ومراحله فيقول : إن أولها أنه كان طريقا من طرق العبادة يعبر عن معنى الكمال الدينى بالتمسك بالشرع والزهد فى الدنيا ، عند ما أخذ الناس فى مخالطة الزخارف الدنيوية ، وكان يقابل علم الفقه الذى يتناول ظواهر العبادات ورسومها ، وهذا الدور لا يعنينا فى هذا الفصل ، ولما نشأ البحث فى العقائد والتماس الإيمان من طريق النظر أو النفوس المقدسة ، وتوجهت همم المسلمين إلى التماس المعرفة على أساليب المتكلمين ، أصبح الكمال الدينى

---

(١) الغزالى ، الاحياء ج ٤ ص ٤٢٨ (٢) الغزالى ، الاحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالى ، كيمياء السعادة ص ١٥

(٤) كان فى نيتنا أن نسوق أمثلة للكشف الغيبى عند الصوفية والمجانين والمصروعين ونحوهم، نعقب عليها بتحليلها وردها إلى عللها القريبة ، ولكن بدا لنا أن حجم الكتاب المقرر ينتظر أن يضيق عنها ، فليطلع القارئ على هذه النماذج فى الطبقات الكبرى للشعرانى (ج ١ ص ١٥٦ و ج ٢ ص ١٣ و ٧٦ و ١٢٠ و ١٦٠ و ١٦١) . وليحاول تحليلها ..!

(٥) استعرض زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمى وجهات النظر المختلفة فى هذه المنابع ، فى كتابه الشائق « الحياة الروحية فى الإسلام » مستنداً إلى مصادر قيمة .

هو التماس الإيمان والمعرفة من طريق التصفية والمكاشفة ، وأصبح التصوف عبارة عن بيان هذه الطريقة وسلوكها ، وأصبح بذلك طريقا للمعرفة يقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين ، واعتبر علم المكاشفة ، وهو نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتذكيته من صفاته المذمومة ، وتنكشف بذلك النور أمور كثيرة ، ثم شاعت بعد ذلك أقاويل الفلاسفة والمتكلمين فى الصانع وصدور الموجودات عنه ونحو ذلك (فتكلم الصوفية فى هذا كله على منهجهم الذى لايعتمد على نظر ولا نص ولا معرفة إلا من ذاق ما ذاقوا ، وهم يرون ما تكلموا به حق اليقين الذى لايقبل شكا ولا يلحقه بطلان ، ولا يدركه إلا من بلغ رتبة العرفان) ، ويقول معالى الباشا إنه لاينكر أن التصوف فى هذا الدور لم يخل من تأثر ببعض ما وصل إلى المسلمين من معارف الأمم القديمة ، ولكنه مع ذلك لا يزال يجد الصبغة الإسلامية غالبة فى هذا العلم الوليد ، ولا يسلم برأى جولد تسيهر فى ضرورة تقدير النصيب الهندى الذى ساهم فى تكوين هذه الطريقة الدينية المتولدة من الأفلاطونية الجديدة(١) .

وهذا رأى سليم فيما يلوح ، أما المؤثرات القديمة الغريبة التى يشير إليها معالى الباشا فربما كانت ــ فيما نرى ــ الأفلاطونية الجديدةوالغنوصية والرواقية والفيثاغورية ونحوها ، وقد يستلزم الحديث عن هذا كله ، الإشارة إلى تأثر اليونان والرومان بقدماء الشرقيين فى هذا الصدد ، بل ينبغى أن نبدأ ببيان موقف الدين الإسلامى ، فإن التصوف إذا لم يتصل بالعناصر الدخيلة ، وبقى فى نطاق الزهد الإسلامى ، لكان ينتظر أن يتطور ويتحول ، وإن كان تطوره سيكون على غير الوجه الذى نراه الآن بعد اتصاله بالعناصر الدخيلة فيما يقول نيكلسون(٢) .

(١) معالى الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق فى تعليقة على مادة تصوف بالنسخة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .

(2) Nickolson : Mystics of Islam p. 20 and A. Litt. Hist of the Arabs p. 392.

موقف الدين الإسلامى من هذه الآراء :

ذهب الصوفية وأشياعهم إلى أن هـذه الأفـكار قد وردت تصريحا أو تلميحا فى آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ، ومن أجل هـذا ـ فيما يلوح ـ قال ابن خلدون : إن متأخرى الصوفية الذين تكلموا فى الـكشف وما وراء الحس ، وذهب الـكثير منهم إلى الحلول والوحدة ، يتجهون إلى الإسلام ويستقون منه مبادئهم ، وقد خالطوا الإسماعيلية المتأخرين من الرافدة الذين يدينون بالحلول وتأليه الأئمة ، وظهر فى كلام الصوفيـة القطب ومعناه رأس العارفين ، وزعموا ألا يبلغ أحد مرتبته فى المعرفة حتى يقبضه الله ويورث مقامه لآخر من أهل العرفان[١] . ويقول الغزالى إن الله يقول وعلمناه من لدنا علما ، مع أن الله مصدر كل علم ، إلا أن بعض العلوم يجىء اكتسابا بالتعلم، وليست هذه علوما لدنية ، لأن العلم اللدنى هو الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من الخارج ، إنما يجىء بالتقوى والعمل الصالح ، قال تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لـكم فرقانا ـ قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ويخرج من الشبهات ، ولهذا كان الرسول يكثر فى دعائه من سؤال النور ، فيقول اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل فى قلبى نورا ... وصرح القرآن بأن التقوى مفتاح الهداية والـكشف ، وذلك علم من غير تعلم ، وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » من الإشكالات والشبه ، « ويرزقه من حيث لا يحتسب » أى يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة ، وقال الرسول من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٩٤

آتاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ، وهكذا يروى أهل الباطن[1] الكثير من الآيات والأحاديث التي يثبتون بها أن الله مصدر وحى الأولياء وأهل الكشف ، وأن العمل الصالح وتقوى الله ، هى التى تهيء النفس الإنسانية إلى الوحى والإلهام ، وأن مصادر هذا كله موجودة فى القرآن والحديث ، وإذا جاز أن يقال إن الغزالى ليس محدّثا ولا يحسن رواية الحديث ، جاز أن يقال إن الحنابلة من أهل الظاهر يسلمون بالكشف الصحيح ، ويؤيدونه بآيات الله وأحاديث رسوله ، وقد عرفنا هذا من بعض ما أسلفناه ، ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن تيمية عن صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى أنه قال : ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ... الخ ويروى عن الترمذى أن النبى قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ويورد من آيات القرآن ما يشهد بصحة هذا الرأى[2] وبهذا يصبح الإسلام عند الصوفية وأهل السنة معا ، المصدر الذى استقى منه التصوف القول بكشف المؤمن للغيب ، عن إلهام إلٰهى لا دخل فيه لتعلم أو تجربة ، وقد اعتمد أهل التصوف على هذا ، وبالغوا فى تصوير التقوى والعمل الصالح حتى ألغوا الدنيا وأبقوا على الحياة الأخرى وحدها ، ولهذا ما يبرره فى الإسلام نفسه ، فالدين وإن كان قد جمع بين الدنيا والآخرة ، إلا أنه آثر الأخرى فى الكثير من آياته .

الكشف الصوفى فى تراث اليونان والرومان : موقف الرواقية :

يعبر « كونتوس » الرواقى عن الآراء السالفة فيقول ، إن فى النفس الإنسانية

---

(١) الغزالى ، فى الاحياء جـ ٣ ص ٢٠ و ٢٢ وقد سجلنا هـذه الأحاديث مؤرخين لا مؤيدين .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ص ١٩٩

ملـكة ملازمة لها ، تمـكنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملـكة ، وجعلها بإرادته جزءا مكونا لها ، فإذا نمت هذه الملـكة على غير قياس ، سميت جِنة أو إلهاما إلٰهيا[١] ، ويكرر هـذا المعنى قائلا ، إن الطبيعة البشرية تبين عن مقدرتها على التنبؤ بالغيب ، عند ما تتخلص من علائق الجسد ، وهذا ما يقع فى الرؤيا ، أو فى الأوقات التى يعترى فيها النفسَ جذبٌ أو إلهام إلٰهى ، وليس فى ذلك من بدع ، فإن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضا ويدرك كل منهـا ما يفـكر فيـه غيره ، دون الاستعانة بالحواس من عين أو أذن أو لسان أو نحوه ، والناس لا يساورهم الشك فى أن الآلهة على علم بكل تصرفاتهم ، ولو كانت فى خفاء ، فـكذلك الحال فى نفوس البشر ، عند ما تدرك بفطرتها عالم الغيب حين تتجرد من علائق الجسد وتتخلص من شهواته ، دون أن تستعين بالنظر أو السمع أو نحوه من أدوات المعرفة الحسية[٢] .

وبهذا يقرر الرواقية مايقوله إخوان الصفا وغيرهم من مفـكرى الإسلام الذين قالوا بوجود قوة تـكمن فى باطن النفس البشرية ، تمـكنها من كشف الغيب عند ما تتجرد النفس من علائق الجسم وشهواته ، وهـذا نفسه ما يؤكده « كونتوس » حينما يقول إن التـكهن الطبيعى يعزى إلى الطبيعة الإلهية ، وأن النفس أثناء اليقظة تستبد بها مطالب الحياة اليومية ، فيمنعها هذا من الاتصال بالنفوس الإلهية ، وأن من المحقق أن النفس لا تستطيع هذا النوع من التـكهن ، إلا إذا كانت من الحرية بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا ، كما يقع فى حالات الجذب أو الرؤيا الصادقة ، ولا غرابة فى هذا ما دمنا نسلم بوجود الآلهة وهيمنتهم على الـكون ، بما لهم من سبق النظر بالمستقبل ، وتدبيرهم لشئون الناس جماعات وأفرادا[٣] .

---

(١) شيشرون : العلم بالغيب فى الفقرة الحادية والثلاثين من الـكتاب الأول .
(٢) المصدر السالف : فى الفقرة السابعة والخمسين من الـكتات الأول .
(٣) المصدر نفسه فى الفقرات من ٤٩ ــ ٥١

الغنوصية والأفلاطونية الجديدة وأثرها فى الكشف الصوفى :

وقد امتزجت الرواقية والفيثاغورية والأفلاطونية بعناصر فارسية وسريانية ونحوها ، وتألف من هـذا كله مزاج تشبع بروح صوفية تجلت أول الأمر فى مذهب الغنوصية الذى عاش فى القرون الأربعة السابقة للميلاد ، وقصد أصحابه إلى إدراك كنه الأسرار الربانية عن طريق الكشف الصوفى ، لا بالبرهان والاستدلال العقلى ، ثم شاعت هـذه النزعات فى التصوف الإسلامى الذى حاربه أهل السنة أول الأمر ، ثم سلموا به وأقبلوا عليـه بعد أن روج له الغزالى ، وتأثر التصور الإسلامى للرسول بالروح الغنوصية ، ولوحظ أن الأرواح القدسية التى كانت فى الهيلينية ، قد ظهر ما يقابلها فى الإسلام بوجود الأولياء إلى حد أن أضحى محمد ، وهو نموذجهم الأعلى ، هو العقل الموجود منذ الأزل والرحيم المخلص القدير ، وهكذا تأثر التصوف وفرقه فى هـذه النزعات الهيلينية إلى جانب تأثره بالأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثة فيما يقول الأستاذ بيكر فى محاضرته عن تراث الأوائل فى الشرق والغرب ، وكما يظهر من مقال « جولدتسيهر » عن العناصر الأفلاطونيـة المحدثة والغنوصية فى الحديث النبوى[١] .

أما فـكرة الجذب التى شاعت فى كتب التصوف الإسلامى ، فقد كانت معروفة فى الأفلاطونية الجديدة ، وقد فطن « سانت هيلير » إلى ردها إلى أرسطو ، لا إلى الأفلاطونية ـ إذ قرر بأن السعادة تـكون فى شواغل العقل (التأمل) ومشاهدة الذكاء ، وذلك أن أرسطو يقول إن الغرض الأسمى للحياة ، هو فاعلية النفس بالمطابقة للفضيلة ، وهى فضيلة تَفـكُّر ، وقال سانت هيلير إن الاسكندريين قد ذهبوا

(١) قارن هذا فى ترجمة زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى « تراث اليونان » .

فى هذا المذهب الأرسطاطاليسى إلى نهايته ، فأداهم هـــذا إلى القول بادعاء الولاية وضلالات الغيبوبة[١] .

وفى الحق لقد شاع عنـد الرومان التنبؤ بالغيب أثناء الجذب ، وكانت له آلهة تتولاه ، وكان موضع ثقة عند الناس ، وأشهر هذه الآلهة « بللونا » Bellone التى أشار إلى بعض نبوءاتها المؤرخون من أمثال تبوللوس Tibullus وجوفنال Juvenal ولوكان Lucan ، وكذلك يقال فى الإلهة « ما » Ma والإلهة سيبيل Cybèle ولـكن المؤرخين قد أشاروا إلى أن اليونان قد استعاروا عن الشرق القديم الـكثير من هذه المعتقدات .

فى التراث الشرقى القديم :

يقال إن الإلهة « ما » قد نقلها جند الرومان من آسيا الصغرى ، حين كانوا يقاتلون فى أرضها تحت إمرة « سلا » ويشهد بهذا بلوتارك فى (حياة سلا) وقد كانت آسيا الصغرى فى أواخر عهد الجمهورية مهداً للحروب ، ويقول بلوتارك إن « سلا » كان قد رأى هذه الإلهة فى حلم وقع له ـ أما الإلهة « سيبيل » أم الآلهة ، فهى أسيوية نقلت بقرار من مجلس الأعيان أثناء حروب هانيبال .. !! وقد قرر المجلس نقلها بعد الاطلاع على ما ورد فى هذه الـكتب بشأنها .

ويضاف إلى هـذا أن كهنة هؤلاء الآلهة كانوا يسمون Fanatici أى المجانين أو المجاذيب ، وكانوا يقطعون أنفسهم حتى يسيل الدم من أبدانهم ، ويزعمون أنهم لا يشعرون ولا يدرون ما يفعلون .

---

(١) سانت هيلير فى مقدمته لترجمة الأخلاق لأرسطو ترجمة الأستاذ لطفى السيد باشا.

أهل الكشف من المجانين والمرضى ومن إليهم :

أشرنا إلى موقف بعض مفكرى الإسلام من هؤلاء فى قدرتهم على كشف الغيب ، ولم نعثر فى القرآن والحديث على ما يؤيد وجهات نظرهم ، ولكن لهذا الموقف شبيها فى التراث القديم :

فالرواقية يسلمون بقدرة النفس على التنبؤ إبان النوم ، لأنها تكون حية وقوية ، وقالوا إنها تكون أوفر حياة وأعظم قوة عند ما يدركها الموت ، إذ تتجرد من علائق البدن فى هذه الحالة كل التجرد ، وبهذا تعظم قدرتها على التنبؤ بدنوها من الموت ، والذين يعتريهم مرض شديد مهلك ، يرون الموت وهو يوشك أن ينقض عليهم فيما يقول كونتوس(١) ، وقد ذهب أرسطو من قبل إلى القول بأن المصابين بالسوداء ، تقوم فى باطن نفوسهم قوة تمكنهم من التكهن(٢) وقد دلل « بوسيدونيوس » الرواقى على قدرة المشرفين على الموت على التنبؤ ، مستشهداً بقصة رجل من أهل رودس ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئا بموت كل منهم على الترتيب(٣) وأيد « كونتوس » هذا الرأى بقصة رجل تنبأ وهو على كومة الخشب التى سيحرق عليها جثمانه بمصرع الإسكندر العاجل ، وتحققت نبوءته بعد أيام قلائل(٤) ، وفى الحق إن الفكرة أعرق فى القدم من الرواقية ، فإن

---

(١) شيشرون ، فى الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول .

(٢) أرسطو ProbXXX ص ٤٧١ ويلاحظ أن كونتوس لم يسلم برأيه ، ورد هذا إلى النفس السليمة لا الجسم المريض ـ قارن الفقرة ٣٨ من الكتاب الاول فى شيشرون ، وهذا يخالف رأيه فى الفقرة الثلاثين ـ السالفة الذكر ـ

(٣) شيشرون فى الفقرة ٢٩ من الكتاب الأول . وقارن الفقرة الثالثة والعشرين فى الكتاب نفسه .

(٤) المصدر نفسه فى الفقرة الثانية والعشرين .

« ديودورس » الصقلى يقول إن فيثاغورس وغيره من قدماء الطبيعيين ، قالوا ـ اعتقاداً منهم بخلود النفس ـ إن النفس تدرك المستقبل فى اللحظة التى تنفصل فيها عن الجسد ، ويكرر (سكستوس إمبريكوس) نصا لأرسطو مقرراً أنه يعيد مايرويه هومير فى الإلياذه فى هذا الصدد ، وقد روى « هومير » أن « هكتور » كان يقتل « باتروكلوس » فتنبأ الأخير قبل أن تفارق روحه جسده ، بأن قاتله هكتور سيقتله « أشيل »[١] ، ولما تحقق هذا ، تنبأ هكتور قبل أن يلفظ نفسه ، بأن أشيل سيُقتل على يد باريس بمعونة أبولو[٢] ، وقد أيد القول بتنبؤ المشرفين على الموت ، بعض الممتازين من الأطباء ، فإن « أريتيه » Aretée ـ على سبيل المثال ـ يقول فى أسباب الأمراض الحادة وأعراضها ، إن الملكات العقلية تحتفظ بنشاطها أثناء الإصابة بالحمى الحادة ، بل ان المرضى يتنبأون خلالها بموت أنفسهم ، ويعلنون المستقبل القريب لمن يحيطون بهم[٣] .

حسبنا هـذا عن تنبؤ المرضى والمشرفين على الموت ، أما المجانين والمصروعون والمعتوهون من مريدى الصوفية ، فقد ذكرنا عن حالات الجذب والمس فى المذهب الإسكندرى وعند الرواقية مايكفى فى هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير إلى أن الرواقية مثلا ، قد آمنوا بأن المعتوهين من أمثال « كساندرا» يكشفون الغيب الذى لايقوى على كشفه الحكماء من أمثال « بريام » ولا يرون غضاضة فى جهل السر فى هذا ، قانعين بما يرون وما تشهد به تجاربهم[٤] ، وإن كان أتباع الأكاديمية الجديدة من

---

(١) هومير : الألياذة فى الكتاب السادس عشر سطر ٨٥٣ وما بعده .
(٢) المصدر السالف فى الكتاب الثاني والعشرين ص ٣١٠ من طبعة Flammarian
(٣) شارل أبون فى تعليقاته على شيشرن (طبعة جارنييه الفرنسية)
(٤) شيشرون فى الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول

أمثال شيشرون ، لا يسلمون بهذا الرأى الذى يخلع على من فقد العقل البشرى عقلا إلهيا ، ويحاولون أن يثبتوا بأن « سيبيل » كانت تمتاز بالعقل المركز ، لا المخ المهتاج ولا الذهن المخبول[١] ، وحسبنا أن نشير إلى أن رأى الرواقية السالف ، هو الذى تردد صداه عند ابن خلدون وغيره من مفكرى الإسلام — فيما يلوح — وأن هذا الرأى نفسه ، هو الذى عرفه مؤلفو المسيحية فى نظريتهم التى قرروا فيها سمو الجاهل صاحب القلب البسيط الصافى على العالم العاقل ، وعلو الطفل على الرجل الناضج، وتفوق فاقدى الوعى على من يعتقد أنه أوتى الحكمة[١] ، وأليس هذا نفسه هو الرأى الذى ذهب إليه بعض صوفية الإسلام ، حين قالوا بأن التعلم والتجربة ونحوهما ، يعوق الكشف الصوفى ويمنع العلم اللدنى ، على نحو ما أبنا من قبل ..؟

إن عدوى الثقافات وتزاوج الآراء لا سبيل إلى إنكاره ، ولكن التشابه فى الأفكار بين الشعوب ، قد يكون مرده إلى صدور هذه الأفكار جميعها عن مصدر آخر يسبقها ، وكثيراً ما يكون مرجعه إلى طبيعة العقل البشرى ، الذى يستجيب للمؤثرات المتشابهة بأفكار واحدة ...

---

(١) المصدر السالف فى الفقرة ٥٤ من الكتاب الثانى .
(٢) شارل أبون فى تعليقاته المشار إليها سابقا .

— ٣ —

الرؤيا الصادقة(١)

اتفق جمهرة مفكرى الإسلام ، على القول بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، فى يقظة أو منام أو فيهما معا ، فإن وقع هـذا إبان اليقظة كان مظهراً للنبوة أو الولاية أو نحوها مما عرضنا لبيانه من قبل ، وإن وقع أثناء النوم كان رؤيا صادقة ، فإن لم تكن بوحى من الله لكشف غيب كانت أضغاث أحلام ، أدت إليها وسوسة نفس أو غلبة مزاج أو وحى شيطان ، أو نحو هذا مما اعتبروه أضغاثاً لا تقبل تأويلا ولا تستحق اهتماما . . ! وسنهمل أمر هـذه الأضغاث لأنها لا تدخل فى نطاق هذا الكتاب ، وإن كان مفكرو الإسلام قد أجادوا فى تصويرها وتعليلها معاً .

علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية :

وقد ذهبوا إلى أن الرؤيا تنبع من نفس المعين الذى تستقى منه النبوة والولاية ،

---

(١) الجزء الأول فى هذا الفصل مقتبس عن بحث لنا جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة ، وكان دراسة مقارنة فى موضوع الأحلام . وقد أضطرنا ضيق المقام الآن إلي الاكتفاء باقتباس فقرات مقتضبة موجزة تشير إلى بعض المذاهب الإسلامية فى هذا الصدد ، وإهمال منابع هذه المذاهب أو ما يقابلها فى التراث اليونانى والشرقى القديم ، كما اضطرنا منهج بحثنا إلى أن نغفل هنا ذكر مذاهب المحدثين من علماء النفس ، وهذا كله مفصل فى بحثنا الأصلى عن الأحلام ، وقد ظهر هذا الشهر (سبتمبر ٩٤٥)

وإن كان حظها منه أقل كمًّا وكيفاً ، فلنعرض رأى ابن خلدون كنموذج لهذا الاتجاه :

يرى ابن خلدون أن للعقل نطاقا يحسن التفكير فى مجاله ، فهو يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ويعتمد على التفكير النظرى . وهذه هى مدارك العلماء ، فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ضل سبيلا ، ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من الإدراك يقوم فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء ويتهيأ للأولياء ، ومع الناس نموذج منه ، يتبدىء فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام ، واهتداء النفوس إلى هـــذا العالم العلوى غير عسير ، لأن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، لتصير ملكا بالفعل فى لمحة من اللمحات ، وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتسابا ، وبهذا تتجاوز مثل هـذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحانى ، لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية ، مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها ، فإذا ترقت النفس تجاوزت هـذا المجال ، واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الحس ، فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة حتى تتجاوز الأوليات التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول ، إلى فضاء المشاهدات الباطنية ، وتلك هى مدارك الأولياء ، أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم .

وقد تترقى النفس المفطورة على الانسلاخ من البشرية جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، لتصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ، فتشهد أهل الملأ الأعلى فى أفقهم ، وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة ،

وتلك هى نفوس الأنبياء فى حال الوحى التى فطروا عليها ، ولم يظفروا بها صناعة ولا اكتسابا[١] .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية ، وهى أقل فى الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن أو غيره ، وهـذا الاستعداد السالف يقوم فى النفس ما دامت فى البدن ، وهو على صنفين : صنف خاص يتهيأ للأولياء ، وآخر عام فى البشر جميعا وهو الرؤيا الصادقة ، أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء ، فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة ، وهى أعلى الروحانيات[٢] .

ومثل هـذا نراه عند غير ابن خلدون ، فالغزالى يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة[٣] وبينهما وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم ، يقوم فيهـا إلهام الأولياء ، الذى يعتبر ضعيفا بالإضافة إلى الوحى النبوى . قويا بالقياس إلى وحى الرؤيا[٤] .

مذاهب المفكرين فى تصور الرؤيا وتعليلها :

تتلخص وجهات النظر الإسلامية فى هذا الصدد فى اتجاهين ، أحدهما شرعى صوفى ، وثانيهما فلسفى ميتافيزيقى ، فلنعرض الاتجاهين فى إيجاز :

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٣ — ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٨٩

(٣) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٤) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣

الاتجاه الصوفى :

يرى الإشراقيون من الصوفية أن النفس من عالم المجردات والمعقولات ، فهى تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التى تكون من جنسها ، إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن ، فإذا قويت الفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية ، بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحيانا إلى عالم القدس وتتصل بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتتلقى عنها المغيبات فى نومها ، كما يقع لها هذا فى يقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش [1] ، وهكذا إذا تطهرنا من شواغل البدن ، وتأملنا كبرياء الحق والنور الفائض من لدنه ، وجدنا فى أنفسنا بروقا ذات بريق ، وشروقا ذات تشريق ، وشاهدنا أنواراً ، وقضينا أوطاراً [2] ، وبهذا يتمكن الإنسان من الاتحاد بروح القدس المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال ، وهو أبونا ورب طلّسم نوعنا ، ومفيض نفوسنا ومكملها بالكمالات العلمية [3] .

وذهب القائلون بوحدة الوجود من الصوفية إلى أن وصول العبد إلى خالقه غير ميسور مع وجود الاثنينية ، فلا بد من إفنائها أولا ، عندئذ لا يهبط الوحى من كائن أعلى مستقل عن الإنسان ، وإنما ينبع من نفسه ، فالوجود حقيقة واحدة ، وما نراه من تعدد وكثرة ، مرجعه إلى آثار الحواس والعقل الذى يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء ، وقد ظهر الوجود الحق فى صورة الكبش فى منام إبراهيم الخليل ، كما ظهر فى صورة إسحاق ، « وما ناب إلا عن نفسه ، وما فدى منها إلا

---

(١) السهروردى : هياكل النور ص ٤٣ — ٤٤

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨

بنفسه الطاهرة فى الصورة الكبشية » وعلى هذا فوحى الرؤيا لا يهبط من خارج ، وإنما يصدر بهذا المعنى . من باطن النفس[١] .

ويرى الصوفية إجمالا أن اليقظة التى تتوافر لنا بالحس هى النوم ، وأن الحلم الذى يتهيأ لنا بالفعل هو اليقظة لا محالة ، ولغلبة الحس علينا ظننا الأمر على خلاف وجهه الصحيح ، فإن غلبنا العقل على الحس ، ظهر وجه الحق فى ذلك[٢] فإن المرء إذا ارتقى فى حال المعرفة ، أدرك أنه نائم فى حال اليقظة المعهودة ، وأن الأمر الذى هو فيه ، إنما هو رؤيا إيماناً وكشفاً ، وقد ذكر أموراً واقعة فى ظاهر الحس وقال : فاعتبروا ، وقال إن فى ذلك لعبرة ـ أى جوزوا أو اعبُروا مما ظهر لكم من ذلك ، إلى علم ما يبطن فيه ، وفى الحديث النبوى : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، ولكن لا يشعرون ، وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم[٣] . ولكن الناس يحسبون وهما أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئا من عالم الغيب ، وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة ، مما يدرك عن طريق الحواس[٤] . واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى ، لانكشفت فيها صور الأولى ، إلا إذا قام بينهما حجاب ، وليست المرآة الثانية إلا القلب ، والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا فى اليقظة ، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول ، وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ ،

---

(١) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٣٦ ـ ١٣٧ وكتاب الدكتور عفيفى عنه وتعليقه على مقال ابن عربى فى النسخة العربية فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) أبو حيان التوحيدى : المقابسات ص ١٧٩ ـ ١٨٠

(٣) ابن عربى : الفتوحات ج ٢ ض ٤٩٩ والتهانوى فى كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٤٥١

(٤) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٤

وتتكشف للنفس آفاق العالم المجهول[١] ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها ، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه ، ولكن الرؤيا لا تقع لكل نائم ، ولا تجىء فى كل نوم ، إنما تعرض للمؤمنين عن طرين الملائكة ، فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة ، وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء[٢] ، وهو لا يتحقق إلا بتجرد النفس من شهوات الجسم ، التى تكوّن على عين القلب غشاوة تمنعها من الإبصار ، وهذه الغشاوة منقشعة عن عيون الأنبياء ، ولكن الجلاء البصرى الذى تهيأ لهم ، لا مطمع فيه لإنسان ، وللبشر نوع من المشاهدة الضعيفة يتوافر أثناء النوم ، لأن النوم يمنع الحواس عن العمل[٣] ، ومتى تجردت النفس عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، أضحت روحانية ، وارتفع حجاب الحس ، ويقع لها هذا بسبب النوم أحيانا ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود بها إلى مداركها[٤] ، وإذا كان الموت أخا النوم ، زال العجب من انكشاف الحجاب إبانه، ذلك أن الموت يحول صاحبه من عالم الملك والشهادة ، إلى عالم الغيب والملكوت ، وبهذا يرى بالعين التى خلقها الله فى كل قلب ، ولا يعوقها عن النظر إلا غشاء الشهوات[٥] ، ومن أجل هذا حاول بعض الناس أن يموتوا موتا صناعياً، بقتل جميع القوى البدنية ، وتغذيتها بالذكر والجوع ونحوه[٦] ، وفى النوم يذهب الحس ويزول حجابه ، على نحو

---

(١) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٩ وكيمياء السعادة ص ١٥

(٢) ابن حزم : ج ٥ ص ١٩

(٣) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٩ و ج ٣ ص ١٦ وكيمياء السعادة ص ١٥ وما بعدها .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ — ٩٠

(٥) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٦) ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٥

أضعف مما يكون فى الموت ، ولهذا تقع الرؤيا الصادقة إبانه ، ويكون الكشف فيها أقل فى العادة منه عند الموت ـ وهكذا تتمكن النفس من الاتصال بالجواهر الروحانية الشريفة فى حال النوم ، الذى تنصرف فيه النفس عن شغل الحواس(١) .

وأما الملائكة التى تتاقى عنها نفوس المؤمنين هذا العلم أثناء النوم ، فهى نفوس الموتى من أهل التقوى ، فإن هؤلاء إذا التزموا الخلق القويم ، وتفقهوا فى الدين حتى يخرجوا من ظلمات الجهالة ، والتزموا كرم الأخلاق منذ صباهم ، وفكروا فى الدنيا وأحوالها ، حتى انتبهوا من نوم الغفلة والجهالة ، كانت نفوسهم ملائكة بالقوة ، متى فارقتهم أضحت ملائكة بالفعل ، واستقلت بذاتها ، واستغنت عن التعلق بالأجسام ، ونجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتقت إلى عالم الأفلاك ، وعندئذ تأبى الاتصال بغير بنات جنسها من نفوس المؤمنين ـ الملائكة بالقوة ـ وربما نزلت الملائكة إلى نفوس المؤمنين فى منامها ، ووعظتها وذكرتها بالمعاد ، أو وصفت لها ما صارت إليه ، وبشرتها فاستبشرت(٢) . وليس من الممكن أن تكون النفوس ملائكة بالقوة ، مهيأة لقبول الوحى والإلهام ، مستعدة للارتفاع إلى رتبة الملائكة والتخلص من عالم الكون والفساد ، والاتصال بعالم البقاء والدوام ، إلا بصفاء الجوهر وحميد الأخلاق ونحو ذلك(٣) وهكذا يكون مرد العلم فى الرؤيا إلى الملائكة التى تمد به نفوس المؤمنين أثناء النوم ، وهذا التعليل يساير اعتبارها جزءاً من النبوة ، يتهيأ لأهل الإيمان وصفوة المؤمنين .

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ وقد ذكروا من آيات القرآن ما يؤيد ما يقولون .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٤ وغيرها

الاتجاه الفلسفي في تصورها وتعليلها :

ذهب فلاسفة الإسلام إلى أن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، ورفض أهل الكلام التسليم بها واعتبروها من مخترعات الفلاسفة ، حسبنا منها الحس المشترك ، وهو القوة التى ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة[1] ، ويرى الفلاسفة أن هذا الحس المشترك قد يأخذ المدرك فى النوم من صور فى العقل الفعال ، وقد يلبسه صوراً تحتاج إلى التعبير أو يبديه سافراً فيقع كما ظهر[2] ، بل إن الحس المشترك لا يتلقاه فى عرفهم عن العقل الفعال رأساً ، بل يأخذه عن النفس الناطقة ـ العقل المستفاد ـ التى تأخذه بدورها عن العقل الفعال ، آخر العقول المفارقة ، وفيه ترتسم صور الكائنات جميعها[3] ، فهو فى هذا يشبه الجواهر الروحانية الشريفة عند الغزالى ، واللوح المحفوظ عند أهل الشرع ، والروح المقدسة عند السهروردى ، أما طريق الاتصال بالعقل الفعال ، فيكون بالتأمل العقلى أو بالمخيلة القوية .

ولسنا الآن بصدد الإسهاب فى بيان آراء الفلاسفة ، وضيق المجال يبرر هذا الإيجاز ، فحسبنا أن نشير إلى الكندى ـ أول فيلسوف إسلامى ـ وهو يرجع الرؤيا إلى النفس ، ويردها إلى القوة المخيلة ، ويريد بها الأداة التى تحصّل صور المرئيات من

---

(١) التهانوى : كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ وابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ٩٧ وما بعدها وقارن ابن خلدون ص ٩٠ وابن رشد ص ٧٨ من الحاس والمحسوس والغزالى فى مقاصد الفلاسفة ص ٣١٣ ـ ٣١٤

(٢) الأيجى جواهر الكلام ص ١٧٣

(٣) التهانوى فى الكشاف ج ١ ص ٦٠١

غير مادة — أى مع غيبة موضوعاتها عن حواسنا — والرؤيا تقع للمرء متى أغفلت استعمال الحواس ، ومتى كانت النفس نقية متجردة عما يفسد قواها ، استطاعت أن تبين عن الأشياء قبل وقوعها[١] . ولكن الكندى لم ينشئ مدرسة تروج بعده لتعاليمه .

وإذا جاز أن يقال إن الكندى أول من وضع الأساس فى تعليل الأحلام الباطلة فى فلسفة الإسلام ، كان من الحق أن يقال إن الفارابى — أكبر فلاسفة الإسلام بعد ابن سينا — هو أول من وضع نظرية الأحلام الفلسفية فى الإسلام ، فقد عرض لتعليل الرؤيا الصادقة ؛ ليثبت النبوة عن طريقها ، ولينتهى إلى أن النبي والحكيم صالحان لرياسة المدينة الفاضلة ...

وتعليل الفارابى للرؤيا ، تسلم إليه نظريته فى الاتصال بالعقل الفعال[٢] ، وحسبنا أن نعرف من هذه النظرية أن فى كل سماء من سماوات العالم العلوى عقلا مفارقا ، يشرف على نظامها ويدير حركتها ، وهذه العقول المفارقة تترتب فى تدرج حتى تنتهى بالعقل العاشر أو العقل الفعال[٣] ، وهو الذى يشرف على الإنسانية ، ويكون صلة بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وفاصلا روحياً بين العالم الإلهى والإنسانى ، وهو مصدر الشرائع ومبعث الإلهامات الإلهية ، وإن كان مرد الإلهام إلى الله ، ولكن العقل العاشر واسطة بين الله والانسان ، فهو يشبه الملك الموكل أنه رجال الدين ، ومن الممكن للانسان أن يتصل بهذا العقل ، ويأخذ عنه علم ما لم يعلم بالتأمل العقلى

---

(١) رسالة الكندى فى لغتها العربية فقدت — فيما نعلم ، وتحتفظ اللغة اللاتينية بنسخة منها ، وقد نقلها الأستاذ محمد متولى بالاستعانة بالاستاذ يوسف كرم ولم تنشر الرسالة بعد

(٢) قارن فى هذا بحثا قيما للدكتور إبراهيم مدكور فى مجلة الرسالة بعدديها ١٥٧ و ١٧٧

(٣) قارن الفارابي فى مقالته فى معاني العقل (نشر الأب بويج) .

الذى يرقى بعقله إلى درجة العقل المستفاد ، وقد يظفر بهذا صاحب المخيلة القوية[١] ، ومثل هذا الاتصال يقع فى النوم ، فيكون رؤيا صادقة، أو فى اليقظة فيكون نبوة ، وإن كان الأنبياء أقوى مخيلة من النيام ، ومن أجل هذا استطاعوا الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة[٢] .

وقد ترددت آراء الفارابى عند غيره من فلاسفة الإسلام ، وأخصهم ابن سينا أشهرهم جميعا ، إذ اتخذ الأحلام أداة لإثبات النبوة ، وذهب إلى القول بأن الأحداث منقوشة فى لوح محفوظ فى العالم العلوى ، وفى وسع بعض الناس الاتصال به ، عن طريق مخيلتهم القوية ، فيقع لهم هذا أثناء نومهم ، فإن أفرطت مخيلتهم فى القوة ظفروا بالاتصال أيقاظا وأولئك هم الأنبياء[٣] ، وذلك لأن المخيلة مصدر الصور الباطنية ، ولكن شواغل حسية أو باطنية تصرفها عن أداء وظيفتها[٤] وهذه تقل عند النوم ، وتنقطع فى حال النبوة ، وهكذا سار ابن سينا فى نفس الاتجاه الذى رسمه أستاذه من قبل .

أما ابن رشد فإنه يقرر أن الرؤيا لاتعرض لقوة الحس أو النطق فى النفس ، ولكنها ترجع إلى المخيلة ـ كالأحلام الباطلة أحيانا ـ وهى تتصل بالعقل الفعال البرىء ، ولا يرد كشفها الغيب المحجب إلى مقدمات أو فكر أو روية ، وإلا كان شأنه شأن المعرفة التصديقية التى تحصل لنا عن مقدمات ، والذى يعطى المعرفة

---

(١) الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٤٧

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ ــ ٥٢ .

(٣) ابن سينا : إثبات النبوات (الرسالة السادسة فى رسائل الحكمة وهى ص ٨٢ والإشارات ص ٢٠٩ ــ ٢١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٢ ــ ٢١٤ .

الغيبية فى الرؤيا هو نفس العقل الذى يعطى المبادئ الكلية فى الأمور النظرية ، وإن كانت هذه تعطى المبادئ الكلية الفاعلة للمعرفة المجهولة ، أما فى حالة النوم فتعطى المعرفة المجهولة بلا وساطة ، وماهية النبوة داخلة فى هذا النوع من الإعطاء ، ومن أجل هذا نسب هذا إلى إلٰه ، هو عقل برىء عن المادة ، والمعروف فى العلوم الإلٰهية أن هذه العقول المفارقة إنما تعطى شبيه ما فى جوهرها(١) .

وعلة اختصاص النوم بهذا الإدراك الشريف ، أن النفس واحدة بالموضوع كثيرة بالقوى ، ولهذا فإنها حين تستعمل بعض قواها الباطنة ، يضعف بعضها الآخر ، وفعل القوة الخيالية فى حال النوم يكون أكمل لا محالة ، إذ تتعطل أثناء النوم الحواس الظاهرة وآلاتها ، وتميل النفس بذلك نحو الحس الباطن(٢) .

حسبنا هذا فى الإبانة عن موقف الفلاسفة والصوفية ورجال الشرع من تفسير الرؤيا الصادقة وتعليلها ، ولنحاول أن نتبين مدى الصواب فى اعتبارها وحيا إلٰهيا ، يكشف غيبا محجبا :

مناقشة الادعاء بأنها وحى إلهى :

لكى نناقش وجهات النظر الإسلامية ـ شرعية وصوفية وفلسفية ـ فى اعتبار الرؤيا وحياً لكشف غيب محجب ، ينبغى أن نعرض لموقف القرآن الكريم منها : قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء » وهذه الآية تجمع أصناف الوحى الإلهى الثلاثة، ويراد

---

(١) ابن رشد : المقالة الثانية من الحاس والمحسوس ص ٨٢ ـ ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٧ ـ ٨٨ .

بالوحى فيها إلقاء المعنى فى القلب ، وليس فيها ما يشير إلى أن هذا الالقاء أو النفث فى الروع يقع فى يقظة أو منام ، ولـكن بعضهم قد فسر الوحى بالرؤيا ، وشبهه بما وقع لإبراهيم عليه السلام فى ذبح ولده فى المنام ، ولم يقصر وقوع هذا الوحى على الأنبياء وحدهم ، واستند فى هـذا إلى قوله تعالى : « ... الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » إذ فسر الفخر الرازى البشرى بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، وهـذا الاتجاه فى تفسير الآيتين ، قد سرى كالبرق بين المسلمين ، حتى استقر فى أذهانهم أن القرآن يقرر بأن الرؤيا وحى عن الله ، وأنه يقع للأنبياء ومن إليهم من صفوة المؤمنين ، وقد تضمنت الأحاديث الـكثير مما يؤيد هذا الاتجاه ، فلم يكن لمسلم بعد هذا أن يستخف بها ، ولـكن اختلاطها بالنبوة قد حملهم على سلب التشريع عنها ووضعها بعد الولاية .

ولعل مردّ نزوع المسلمين إلى اعتبارها وحياً إلٰهيا ، إلى الطبيعة البشرية ، لأن إضافة الصفة الالٰهية للرؤيا يساير هذه الفطرة ، ولا يعوق التسليم بها إلا الجدل العقلى الذى لا يتمشى فى كثير من الحالات مع الطبيعة فى كل أهوائها ، وقد عرفت هذه الصفة شعوب لا تدين بالإسلام ، ولا بغيره من الديانات المنزلة ، بل اهتدت إليها قبل أن تعرف هـذه الديانات ، حتى قرر المؤرخون بأن الـكشف الإلٰهى فى الأحلام عقيدة كل شعب ، بل كل فرد فى الماضى السحيق ، وأن من العبث أن نتساءل من أين وصل الاعتقاد فى الأحلام إلى اليونان مثلا ، فالأحلام قديمة قدم العالم ، وليس لها بداية يمكن للتاريخ أن يسجلها(١) .

ويلوح لنا أن الذين فسروا الآية القرآنية الخاصة بالوحى ، قد حملوا لفظ الوحى

---

(1) Bouché - Leclercq, L'histoire de la Divination 1. p. 277 - 8.

فوق ما يطيق من معنى ، ولعل هذا يقال فيمن فسروا البشرى بالرؤيا ، فعمموا بذلك وقوع الوحى لغير الأنبياء والرسل ، ولا شك أن هـذا التفسير قد صادف هوى فى نفوس المسلمين ، فوضعوا فيضا من الأحاديث النبوية المنحولة أملاً فى تمكين الرؤيا وتأييدها وحياً من الله .

وإذا كانت الرؤيا بدء الوحى فى رسالة النبي كما ورد فى حديث عائشة فى باب « كيف كان بدء الوحى » فى صحيح البخارى ، فإن ذلك لايستلزم أن تكون رؤيا غير الرسول وحياً من الله ، فليس كل ماجاز له ، يجوز لغيره ، وإلا كان الناس كلهم رسلا ... وإذا كان القرآن قد تضمن رؤى وقعت لبعض الأنبياء وحياً إلهياً ، فإن هذا لايقتضى وقوع مثلها لغير الأنبياء ، فمن الجائز أن يخصهم الله بغير مايخص به سائر الناس .

والمجال يقتضينا الإيجاز فى هذا الصدد ، ولكن ينبغى أن نشير إلى أننا لاننكر إمكان تحقق بعض الأحلام على سبيل المصادفة أو الاستجابة إلى إيحاء أو استهواء ذاتى أو نحو هذا مما تفصله الدراسات السيكولوجية الحديثة ، وقد كان من الحق مع هذا كله ــ أن نقول ــ إن نزوع المفكرين إلى ربط الرؤيا بالدين شىء طبيعى وقع لغير المسلمين من شعوب ، حتى قبل نزول الأديان المقدسة ، وأى شىء فى تاريخ الدنيا اتصل بالمجهول ولم يرتبط فى أذهان الناس بالمعتقدات الدينية .. ؟

ولعل رأينا هـذا يقويه عندنا ما لاحظناه فى موقف جمهور المتكلمين من الرؤيا الصادقة ، فهم أصحاب نزعة عقلية ملحوظة ، وقد أبلوا فى الدفاع عن الإسلام بلاءً حسنا ، ولكنهم يعتبرون الرؤيا خيالا باطلا ، وعلل بعض « المعتزلة » هـذا الرأى بفقد شرط الإدراك ، وقيل لأن عادة الله تعالى لم تجر بخلق الإدراك فى النائم[1] ،

---

(١) الأيجى فى جواهر الكلام (نشر الدكتور عفيفى) .

إذ النوم ضد الإدراك ، والضدان لايجتمعان ، وإن كان هذا التعليل لاينفى قيام الوحى فيما يبدو لنا ، من الناحية الشكلية المنطقية المحضة .

تأويل الرؤيا :

ذهب مفكرو الإسلام إلى أن أضغاث الأحلام لاتقبل تأويلا ، ولكنهم أجمعوا على تعبير الرؤيا الصادقة ، بل جعلوا تعبيرها علما له قوانينه الكلية[١] ، وأصوله العامة التى لا يستقيم التأويل بدونها[٢] . ويراد بعلم التعبير معرفة الأمور الغيبية عن طريق التخيلات النفسانية التى تقع أثناء النوم[٣] . وهو يستلزم تفكير المرء فى الصور التى وعتها حافظته مما رآه فى رؤياه ، ثم محاولة إرجاعها إلى مايشبهها من مدركات الحس التى وعاها من قبل ، ثم استخدام الخيال والذاكرة فى الانتقال من شىء إلى شىء موجب له إلى آخر مؤد إليه ، وهكذا حتى يهتدى آخر الأمر إلى أول شىء كان السبب فى تخيل هذه الصورة الأخيرة التى وقعت فى الرؤيا[٤] ، وبتجريد مدركات النوم عن الصور التى كساها فيها الخيال على هذا النحو ، يصل المعبر إلى حقيقة هذه المدركات[٥] والتعبير لا يتطلب معرفة المناسبات التى بين الصور ومعانيها فحسب ؛ بل يقتضى معرفة مراتب النفوس التى تظهر الصورة فى حضرة خيالاتهم ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٧ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٣٩٩ — ٤٠٠ يردد مايقول ابن خلدون من غير إشارة إليه .

(٢) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٢ — ١٣ وابن شاهين فى الإشارات ص ٣٦٢ والسالمى فى الاشارة فى علم العبارة ص + ٣

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون جـ ١ ص ٩١ ، طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة جـ ١ ص ٢٧٤ والتهانوى فى مقدمة الكشاف ص ٤٤ وقارن ابن عربي : فصوف الحكم ص ١٤١

(٤) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٥) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون جـ ١ ص ٦٠١

ومن أجل هـذا اختلفت الصورة الواحدة باختلاف مراتب الأشخاص[١] ، والمطلع على كتب التعبير يلاحظ أنها تحوى « جداول » أو قوائم بأسماء الأشياء التى يحتمل أن تظهر فى الأحلام ، والمعانى التى يحملها كل منها ، ويلاحظ أن الرمز الواحد يحمل معانى كثيرة تختلف باختلاف الأمم والملل والأفراد ، بل قد تختلف عند الفرد الواحد باختلاف ظروفه وأحواله ، وإن كان فى الرموز عنصر مشترك بين الشعوب على اختلاف أجناسها وتباين أديانها ، مما يرجع إلى وحدة الطبيعـة البشرية فى كل زمان ومكان . وهذا الاختلاف استوجب توافر صفات كثيرة فى المعبر لا يقوى على تأويل الرؤيا بدونها ، ويظهر أن المستشرق مرجليوث Margoliouth قد فاتته هذه الملاحظة حتى صرح فى معرض حديثه عن كتاب النابلسى فى تعبير الأحلام، أنه يثير الحيرة ويدعو إلى الاضطراب ، بكثرة مايورده من معانى الرمز الواحد ..![٢] مع أن أكثر المعبرين ـ ومنهم النابلسى ـ لا يذكرون المعانى التى تحملها رموز الأحلام ، إلا بعد مقدمة يعرضون فيها لأصول التعبير وقوانينه العامة .

على أن أهل التعبير لا يقنعون بالصفات التى أوجبوا توافرها فى المعبر ، والقوانين التى ألزموه باتباعها ، فيقولون إن التعبير وإن كان ضرباً من الحدس والفطنة[٣] يعتمد على الاطلاع والذكاء والحذق ، إلا أن أهله لو اعتمدوا على كتب التعبير وحدها ، عجزوا عن تعبير الـكثير من الرموز ، لأن التعبير يتوقف ـ إلى جانب حذق المعبر ـ على « الفتح عليه بهذا العلم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[٤] ، وذهب

---

(١) ابن عربي : فصوص الحـكم ص ١٤١

(2) Margoliouth, art. Muslim Divination (Encyclopedia of Religion and Ethics).

(٣) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٤) النابلسى : تعطير الأنام جـ ١ ص ٨ وابن شاهين فى الإرشادات فى عـلم العبارات ص ٣٦٢

ابن خلدون إلى أن القرائن التى تعين المعبر على تعبير الرؤيا ، منها ماينقدح فى نفسه بالخاصية التى خلقت فيه ، وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له[١] . وصرح ابن عربى بأن العلم بالتعبير انكشاف لا يحصل إلا بالتجلى الإلهى من حضرة الاسم الجامع بين الظاهر والباطن[٢] ، وأيد هذا الاتجاه كبار المعبرين[٣] .

نماذج من الرؤيا الصادقة وتحليلها :

١ — قيل إن أم الإمام الشافعى ، رأت فى منامها بعد أن حملت به ، أن « المشترَى » خرج من فرجها ، وانقضّ بمصر ، ثم تفرق فى كل بلد قطعة .. ! فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذا فى مصر ، ينشر علمه فى أكثر البلاد طولا وعرضا ـ فكان الأمر كما قالوا[٤] .

٢ — قيل إن رجلا رأى نفسه يختم على أفواه الرجال والنساء وفروج هؤلاء ، فقال ابن سيرين فى تعبيرها : إنه مؤذن ، أذن فى رمضان قبل مطلع الفجر . فكان الأمر كما قال[٥] .

٣ — قيل إن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها ، فعبر أبوها رؤياها ، بموته وموت الرسول والفاروق ، ودفنهم فى حجرتها جميعاً . وصحّ بعدُ ماقال[٦] .

---

(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٤١٧ (٢) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٤١

(٣) قارن الفخر الرازى : مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ١٣٩ والزمخشرى فى الكشاف جـ ١ ص ٦٦١ (٤) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ٢ ص ١٠٨

(٥) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة جـ ١ ص ٢٧٤

(٦) الأبشيهى جـ ٢ ص ١٠٨

٤ — حين كان معالى أستاذنا مصطفى باشا عبدالرازق ، سكرتيراً للمعاهد الدينية، كان الشيخ سليم البشرى شيخاً للجامع الأزهر ، ومرض معاليه ، فزاره الشيخ فى منامه ، وفى الصباح زايله المرض .. ! فعبَّر هـذه الرؤيا أحد الذين سمعوا روايتها فى هـذه الجلسة ، بأن اسم الشيخ الأكبر دالّ على مضمون الرؤيا ، سليم تعبر عن السلامة ـ العافية ـ والبشرِى ترمز إلى البُشْرى ـ بالشفاء .

٥ — فاخر الشعرانى بوقوع كثير من الرؤى له ، يوحى بها الله عسى أن يحتاط للأمور المقبلة ، إن كانت الحيطة ممكنة ، فمن ذلك أنه كان وصياً على أبناء أخيـه ، فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى فى تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً فى خلوته ليخرجوا منه ، فأدرك أنه أخطأ فى أمره السالف ، وعدل عنه ..! وإذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته ، وساورته الشكوك فيما سمع ، رأى فى ليله من اغتيب ، يلبس البياض ، فيدرك كذب المغتاب .. ! ... الخ[1]

٦ — وروى الرحالة « لين » E.Lane أن الإمام الشيخ المهدى ، قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عنـد العامة ـ هو الشيخ أحمد البهى ـ كان يحضر دروس الشيخ الأمير الـكبير ، فسمعه يؤرخ حياة الحسين ، ويعقب قائلا إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسينى المعروف فى القاهرة ، وكان « البهى » يعتقد غير ذلك ، فآلمه ماسمع ، ولـكنه لم يعترض على الشيخ احتراما لشهرته ، وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس ، انطلق إلى بيته، وأقام الصلاة ودعا ربه ـ وهو جاث على ركبتيه ـ أن يريه رسول الله فى رؤيا صادقة ، يعرف منها حقيقة هذه المسألة ؛ فلما استسلم للنوم رأى أنه فى الطريق إلى زيارة المشهد الحسينى ، فلما دنا من قبته ، رأى النور يشع منها

(١) الشعرانى : لطائف المنن جـ ١ ص ٩٨ ـ ١٠٠

فدخل المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه ـ بعد تبادل التحية ـ أن يقرئ رسول الله السلام ، فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فجهر بقوله : السلام عليك يا رسول الله ، وكررها ثلاث مرات والدمع يجرى على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أُدنُ منى يابنى فقاده الشريف وأجلسه فى حضرته ، فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يابنى . فقال له : يارسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا .؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلأ الرجل غبطة وطمأنينة ، واستأذن الرسول فى أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير فى درسه ، فلما سمع الرسول قصته ، طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة ، فاستيقظ من نومه ، وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه (الأمير) فلما بلغ الباب دقَّه بعنف أفزع سكان البيت ، ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته . ! فلما علم الشيخ بصاحب الصوت ، أدهشه مجيئه فى هذا الوقت المبكر ، وظنَّ سوءا ..! وأخذ البهى ـ من فرط التأثر ـ يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام ، أو يقبل يده كما جرت عادته معه . وقص رؤياه منبئاً شيخه بأن الشريف الذى كان بالباب هو الإمام على ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر ، والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا فى زيارة الحسين ..! فنهض الشيخ الأمير لتوه ، وقال هيا بنا لزيارة الحسين ..! ولما دخل القبة قال : السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إنى أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهى شاهدة على ذلك ، لأن رؤيا الرسول حق ... الخ[1] .

---

(1) E. W. Lane, The Manners and Customs of Modern Egyptions p. 219 - 221.

حسبنا من نماذج الرؤيا ماأسلفنا ، وقبل تحليلها ننبه القراء إلى أن تأويل الأحلام وتحليلها ، لا يكفى فيه أن تعرف أحداث الحلم ومناظره ، وإنما يتطلب التأويل معرفة الكثير عن حياة الحالم ، ولا سيما تجاربه فى يومه السابق ، وقد أشرنا فى حديثنا عن التعبير إلى بعض مستلزماته وأكثرها مسلم به فى الدراسات السيكولوچية الحديثة ، ولكن الكثير مما تلزم معرفته ، غير متوافر لنا بصدد هذه الأمثلة ، ومع هذا فسنحاول تأويلها فى ضوء معلوماتنا عنها ، موجزين على قدر الاستطاعة :

١ — أما الرؤيا التى رويناها عن أم الشافعى ، فالراجح أنها مختلقة ، إذ يكاد يكون من المقطوع به ، أنها لاتعرف «المشترى» الذى ورد اسمه فى القصة ، وقد تحرينا ذكر هذا المثال فى صدر نماذجنا ، لنقول إن الكثير من الأمثلة التى وردت فى المصادر الإسلامية مختلق أو مبالغ فيه ، رغبة فى تأييد القول بأن الرؤيا قد تكون وحياً إلهيا . فإذا قيل إن كلمة « المشترى » هى المختلقة ، وأما القصة فصحيحة ، قلنا إن هذا محتمل ، وعندئذ يكون تأويل الرؤيا ، على الوجه الآتى :

كل أم تعلق على وليدها المنتظر آمالا كبارا ، ولا غرابة فى أن تتمثل هذه التمنيات فى الحلم نوراً يشع ، ويتوزع فى البلاد طولا وعرضا ، ومثل هذا الحلم يقع للأمهات كثيراً ، وإن اختلفت صوره ومناظره ، والأم التى تنكر وقوع مثله لها ، تعطينا الدليل على أنها تنسى أحلامها أو بعضها ، وقد حرصت المصادر الإسلامية على رواية الحلم السالف ، لأن الشافعى إمام فذ فى تاريخ الإسلام ، ولو وقع عن غيره ، وذكرته صاحبته بعد يقظتها ، لأغفل التاريخ أمره .! ويؤول مثل هذا الحلم ، بأن صاحبته تتمنى أن يكون طفلها فى مقبل أيامه عالماً ممتازاً ، لأن النور كثيراً ما يرمز إلى هَدْى العلم والدين ونحوه ، أما تحققه فأكبر الظن أنه لا يكون إلا على سبيل المصادفات .

٢ — والمثال الثانى يرينا أن الرؤيا ـ عند ابن سيرين ـ لا تدل على المستقبل دواما، وقد أشار إلى هـذا النابلسى ، ونص على أنها تـكشف المغيب فى الماضى والحاضر كذلك[1] ، وتأويل هـذا المثال معقول ، والحلم فيه ترداد لخواطر جرت فى الذهن أثناء اليقظة .

٣ — أما حلم السيدة عائشة ، فمردّه ـ فيما يلوح ـ إلى إعجابها بهؤلاء الثلاثة ، والمظنون أن الوساوس كانت تساورها ـ فى اليوم السابق لوقوع الحلم ـ بصدد موتهم المنتظر ، وتجربة اليوم السابق ، وهى توقع نزول الموت بهؤلاء الأعزاء ، كفيلة بأن تنشىء مثل هـذا الحلم ، وقد تمثلوا فى أقمار ، رمزاً لنور الهداية الدينية التى كانوا يقومون بها يومذاك ، وليس غريباً أن يموت هؤلاء الثلاثة بعـد ذلك ، فالموت هو المصير المحتوم لـكل إنسان . بقى تحقق دفنهم فى حجرتها ، وتفسير هذا ـ فيما يبدو لى ـ أنه كان استجابة من القائمين بأمر الدفن ، لما ظنوا أنه رؤيا صادقة ، فالمؤرخون يقولون إن المسلمين قد اختلفوا ـ بعد وفاة الرسول ـ فى مكان دفنه ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وكاد الرأى يستقر على دفنه فى المسجد ، حيث كان يخطب ويعظ ويصلى بالناس ، ولـكن السيدة عائشة نفسها هى التى حالت دون ذلك ، إذ قالت إن النبى كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه ، فـكان يضعه مرة على وجهه ، ويكشف مرة عنه ، وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ..! فعدلوا عن دفنه فى المسجد ، وعندئذ قضى أبو بكر ـ وهو الذى عبّر رؤيا عائشة ـ بين الناس إذ قال : إنى سمعت رسول الله يقول «ماقُبض نبى إلا دفن حيث يُقبض»

---

(١) النابلسى : تعطير الأنام ج ١ ص ٥ .

فتقرر — عندئذ — أن يحفر له مكان الفراش الذى قبض فوقه ..![1] أما دفن أبى بكر مع الرسول ، فمرجعه إلى أنه هو الذى أوصى بذلك ..![2] وأما دفن عمر معهما ، فمرده إلى أنه هو الذى استأذن السيدة عائشة فى ذلك قبيل وفاته ..!

٤ — أما حلم معالى الباشا ، فإن طريقة تأويله كانت شائعة عند المسلمين الأول ولكن التشابه بين معانى الأسماء التى يظهر أصحابها فى الحلم ، والصحة والعافية للمريض ، لا يبرر جعل الأول علة للثانى .! ولعل الأصح أن يقال إن معاليه كان فى ليلة الحلم ، على وشك البرء من مرضه ، والمعروف عند المحدثين من علماء النفس — بل هذا رأى فطن إليه أرسطو قديما — أن الإحساسات الباطنية تكبر فى الأحلام ، أما فى اليقظة فإن مشاغلنا اليومية تصرف انتباهنا عن هذه الإحساسات[3] ، فإحساس معاليه الباطنى بدنو البرء من المرض ، كان قبل الحلم ضعيفاً غير مشعور به أثناء اليقظة وعند النوم قوى هذا الإحساس وأصبح مشعوراً به ، فكان بهذا مثاراً لحلم ، تجلى فى طريقة رمزية كانت معروفة عند المسلمين كما يعرف معاليه . وليس فى الحلم بعد هذا أية غرابة .

٥ — أما ما رويناه عن الشعرانى ، فمرجعه — فيما يبدو — إلى أنه حين أصدر أمره إلى أولاد أخيه بملازمة حجرتهم ، شعر — أثناء ذلك أو بعد ذلك بقليل — أنه يقسو على أيتام ، وهذا الشعور ليس غريباً على رجل دين وتصوف ، وربما كان

---

(١) محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد ص ٤٩٣ — ٤ (مع ملاحظة أنه لم يشر إلى هذه الرؤيا
(٢) محمد حسين هيكل باشا : أبو بكر الصديق ص ٣٥٤

(٣) ومعنى هذا أن أرسطو الذى أنكر الرؤيا الصادقة ، قد سلم بتنبؤ الحلم ببدء الأمراض التى تكون فى اليقظة غير مشعور بها . وسلم المحدثون من علماء النفس بذلك . أنظر فى تفصيل هذا الرأى ، كتابنا «الأحلام» ص ٦٨ و ١٤٣ (فى بيان رأى أرسطو) ، ص ٥٣—٥٤ و٧٣— ٧٤ (فى بيان رأى المحدثين من علماء النفس) .

شعوره من الضعف بحيث لم يقو على صرفه عن مسلكه إزاءهم ، فلما استسلم للنوم ، كبر عنده ماخطر له فى يقظته ، وتمثلت له الصورة التى رآها ، فعدل عن مسلكه .! أما حلمه الثانى فإنه يعترف فى رواية له ، بأنه إذا ارتاب فى كلام المغتاب وهو يستمع إليه ، رأى فى منامه أن الذى كان موضع غيبة برىء الساحة ..! فالشك قائم فى اليقظة ، ولا غرابة فى أن يبدو الشك المقلق فيما يسمع ، يقينا بكذبه إذا نام .! ومثل هذا يقال فى سائر مايرويه مما يحسبه وحياً من الله .

٦ — بقى حلم الأستاذ « لين » E. W. Lane ، وبساطته سر طرافته ، إنه حلم صريح سافر ، وليس مقنعاً فى رموز تحتاج إلى تأويل ، وهو ـ فيما يرى بعض المحدثين من علماء النفس ـ تحقيق رغبة مضغوطة Suppressed Wish - fulfilment(١) لم تشبع إبان اليقظة ، فتحققت فى المنام ، هاله أن يكون رأس الحسين غير موجود فى مشهده ، فصلى وطلب إلى الله أن يكشف له عن الحقيقة ؛ والأصح أن نقول إنه طلب إلى الله أن يريه دليلا على صحة اعتقاده ، فى أن الرأس موجود فى مشهده ..! فكان له ما أراد . وأذعن شيخه لهذه الرؤيا ، اعتقاداً منه بأن رؤيا الرسول حق ... الخ

وينبغى أن نقول أخيراً ، إن تأويلاتنا لهذه النماذج من الأحلام ، مجرد ترجيحات لا تمنع من وجود احتمالات أخرى ، فليس يتطلب تأويل الحلم ، لا كتفاء بعرض أحداثه ومناظره ، ولا بد للمحلل من الاتصال بصاحب الحلم ، ومعرفة الكثير

---

(١) الرغبة المضغوطة Suppressed, fr. repressé يعمد الإنسان إلى إخفائها وعدم المجاهرة بها شاعرا واعيا ، أما الرغبة المكبوته repressed. fr. refoulé فإنها تكبت على غير وعى وشعور من صاحبها .

عن حياته ، وكشف المجهول من باطن نفسه ، واستكناه الخواطر التى تشغل باله ، ولا سيما ما دار منها بخلده فى اليوم السابق على وقوع حلمه ، وغير هذا من مستلزمات فن التأويل والتحليل ، مما يعوزنا بصدد الأمثلة التى عرضناها موجزين ، وكم من حلم استلزم تأويله جلسات طوالا عند المشتغلين بتحليل الأحلام من علماء النفس ، فحسبنا ما ذكرناه ، مجرد إشارات إلى بعض اتجاهات التحليل فى الأحلام .

حسبنا هذا عن موقف مفكرى الإسلام من الرؤيا الصادقة ، فقد كانت الأحلام — فى شتى صورها — موضع بحث مفصل تناولنا فيه ما قيل بصددها قديما وحديثا ، فليرجع إليه من شاء[1] .

---

(١) الأحلام — (دراسة مقارنة) ظهر فى سبتمبر ٩٤٥

الباب الثالث

فنـــــون التكهن الصنعى

عند مفكرى الإسلام

فنون التكهن الصنعى

عرضنا فى الباب السالف مذاهب مفكرى الإسلام ، فى فنون التنبؤ الطبيعى الذى يصدر عن وحى أو إلهام إلٰهى ، أو يكون صدى فطرة لا أثر فيها لصناعة واكتساب ، وسنشرع الآن فى عرض أساليب التكهن الصنعى ، الذى يستند إلى منطق العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، واستغلال المشاهدة واستخدام الأدوات الحسية ، وغير هذا مما يجىء اكتسابا ، قد لايمنع من توافر طبيعة تهيئ أصحابها لذلك ، فإذا استشعروا فيها النقص عمدوا إلى تكملتها بأسباب يتحرونها عامدين ، وقد أبى جمهرة مفكرى الإسلام التسليم بهذه الأساليب ، ورفضوا أن يأذنوا بمزاولتها ولكنها كانت معروفة فاشية حتى قبل نزول الإسلام ، ومن هنا وجب التحدث عنها :

— ١ —

علم الكهانة(١)

آفاق الكهانة :

تطلق الكهانة على كثير من ضروب التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها ،

(١) يراد بالعلم هنا مجرد المعرفة البشرية فى ميدان ما ، وليس يتحتم أن يطلق اللفظ على =

وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم(١) ولكن جمهرة مؤرخيها يحدونها بأنها اتفاق الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من جن وشياطين ، واتخاذهم أداة لمعرفة ما يتصل بالمستقبل من الأحوال الجزئية الحادثة فى عالم الكون والفساد ، وهى أشيع فى العرب منها فى غيرهم من شعوب الأرض ، واشتهر من بينهم شق وسطيح(٢) ومرجع انتشارها بين العرب وندرتها عند غيرهم أنها تتولد «على صفاء المزاج الطبيعى ، وقوة مادة نور النفس» وتتصل « بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم » وذلك أن العزلة تدفع النفس إلى التفكر ، فيتأدى بها هذا إلى الكشف عن الغيب بالعين النورية ، ومتى قويت النفس فى الإنسان ، أشرفت على دراية الغائبات قبل ورودها ، وقد كان كبار مفكرى اليونان ، ينعتون هذه الطائفة بالروحانية(٣) . ولكن بعض مؤرخيها لايقصرها على معرفة المستقبل وحده ، ويرى أنها تكشف عن مجاهل الغيب ، ما اتصل منه بالماضى والحاضر والمستقبل(٤) . ولكن اشتمال

= المعرفة اليقينية كما ذهب المتكلمون (ص ٧ ج ١ من أبجد العلوم) للقنوجى ولا أن تنتظم هذه المعرفة فى صورة قواعد وقوانين كما يستلزم معنى العلم — وبعض ما سنعرف من العلوم ، ليس علوما مستقلة ، لكنها فروع لعلوم فيما يقول القنوجى (فى آخر فهرس الجزء الثانى) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ و ٣٠٢ وحاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ طبعة دار الطباعة المصرية والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٦٠٠ وقيل إن الكهانة لليمن والزجر لبنى أسد والقيافة لبنى مدلج (المسعودى ج ٢ ص ٨٠) .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥

(٤) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ وكما أن أهل الفن ليسوا على اتفاق فى هذا الصدد ، فكذلك الحال فى أهل اللغة ، ففى اللسان (ج ١٧ ص ٢٤٣) أن الكاهن من =

الكهانة على ما سلف من ضروب التنبؤ ، يبرر الظن بأنها تتضمن الكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل ، فإن العرافة نفسها تعتبر ــ عند بعض المؤرخين ــ من فروع الكهانة(١) .

وقيل إن الكاهن لا يستعين فى صناعته بآلة ولا بإظهار حساب ولا بنظر فى كتاب ، بل بجودة الحفظ وذكاء النفس وصحة العقل وحسن التميز وحدّة الخاطر، مع مساعدة ماانفق له فى مولده الذى أوجب له ذلك(٢) ، وهى قوة إلهية تتوافر فى الناس بسهام سماوية وأسباب فلكية وأقسام علوية ، يرثها بعض الناس فرداً عن فرد(٣) ، ولكن بعض المؤرخين قد شطرها شطرين : خص أحدهما بالتوارث وجعل الكهانة فيه من نواحى بعض النفوس ، فلا تجىء اكتسابا(٤) ، فيزعم هـذا النوع من الكهان بأن له تابعاً من الجن ورئيا يلقى إليه الأخبار . أما الصنف الثانى من الكهانة فهو ما كان بالعزائم ودعوة الكواكب والاشتغال بهما(٥) . وفى المصادر العربية الكثير من أخبار الكهان(٦) .

= يتعاطى الخبر عن الكائنات فىمستقبل الزمان، ويقول التاج (جـ٩ ص٣٢٩) تكهن أى قضى بالغيب ــ ولم يحدد لذلك زمانا ــ ولكنه يعود فى تفرقة الكهانة من العرافة فيقول (جـ ٦ ص ١٩٣) بأن العراف من يخبر بالأحوال المستقبلة ، والكاهن من يخبر بالأحوال الماضية .

(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٢ ويصرح المسعودى (جـ ٢ ص٨٤) بأن العراف دون الكاهن .

(٢) إخوان الصفا جـ ٤ ص ٣٨٢ .

(٣) أبو حيان التوحيدى فى المقابسات ص ٣٢٦ ــ الطبعة الأولى عام ١٣٤٧ هـ

(٤) ، (٥) حاجى خليفة فى كشف الظنون جـ ٢ ص ١٩٥ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٦٠٠

(٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

أصل الكهانة :

إذا كانت الكهانة قد فشت عند العرب ، فقد عرفت عند غيرهم ، وقد ردها بعض اليونان والرومان إلى صفاء النفوس ، على اعتبار أن صور الأشياء عندهم قائمة فى النفس الكلية ، وقد ذهب بعضهم إلى أن الأرواح المنفردة ـ وهى الجن ـ تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم قد صفت حتى انفقت مع أرواح الجن ، ومرد الكهانة إلى ثلاثة مصادر :

أولاها : استراق السمع ـ ويكون هذا طريق شيطان يسترق السمع ويلقى بالأخبار إلى الكهان ، قال تعالى « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » وقال كذلك « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... » الآية. والمعروف أن الشياطين والجن لا تعلم الغيب ، ولكنها تسترق السمع مما يسمع من الملائكة ، قال تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » .

وثانيها : الوحى الفلكى ـ ذلك أن للكواكب أثرا على مولد الناس ـ وسنعود إلى بيان هذا فى فصل التنجيم .

وثالثها : العلل النفسية ـ فالنفس : « إذا قويت ، قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف » .

وقد رد أصحاب هذا الرأى العلم للنفس ، لا للجسم الذى اعتبروه مواتا لا تعتريه حركة ولا يغشاه حس إلا بالنفس(١) . وسيضح بعض هذا عند ما نعرض للملاقة بين الكهانة والنبوة .

---

(١) المصدر السالف ص ٨٢ ـ ٨٤ وقارن « مرجليوث » فى مادة Divination (Muslim) فى دائرة معارف الدين والأخلاق .

صلة الكهانة بالنبوة :

أشرنا إلى أن بعض المفكرين يرى أن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأن هذا يتحقق للأنبياء فطرة لا اكتسابا ، ولا يحتاجون فيه إلى الاستعانة بشىء من المدارك أو التصورات أو الأفعال البدنية كلاما أو حركة أو نحو ذلك ، وإذا سلمنا بهذا الاستعداد الفطرى فى الطبيعة البشرية ، أوجب العقل أن نسلم بوجود صنف من البشر أدنى من الأنبياء رتبة ، لأن هـذا الانسلاخ لا يتهيأ له بغير الاستعانة بما أسلفنا الإشارة إليه من مدارك وأدوات[1] ، فإن هذه القوة الإلٰهية — الكهانة — إذا أحس بها من نفسه تحرك بالإرادة ليكمل نقصها فيبرزها فى أمور حسية[2] جزئية محسوسة أو متخيلة من أجسام شفافة وعظام حيوانات ، وماسنح من طير أو حيوان ، فيستديم إحساسه بذلك ليستعين به على الانسلاخ السالف الذكر ، ولما كانت هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن بلوغ الكمال ، كان إدراكها للجزئيات أكمل من إدراكها للكليات ، وأداتهم فى ذلك مخيلة بالغة القوة ، وليس يقوى الكاهن على إدراك المعقولات إدراكا كاملا ، لأن وحيه من وحى الشيطان[3] ، فإذا كان الكاهن لايشوب فنه بشىء من الحس ، ويلقى نبوءته على صفائها ونقائها ، كانت كهانته أقوى وأكمل ، لأن قوتها تنسكب عندئذ من المحل الأعلى ، ولكن نفوس الكهانة على نقص وقصور — كما أسلفنا — ولهذا اعترى الخطأ نبوءاتهم ، لأن قوتهم لا تبلغ الغاية فى الخلاص أبداً[4] ، ومن

(١) ابن خلدون فى مقدمته ص ٨٧
(٢) ابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ١١٣
(٣) ابن خلدون ص ٨٧ (٤) أبو حيان التوحيدى فى مقابساته ص ٢٢٧

أجل هذا قيل إن الكهانة تكون عن مغيب والنبوة عن معين ، والعيان معلوم ، والغائب موهوم[١] ، ولهذا فإن صاحب النبوة لا يخطىء ، وهذا هو الذى يميزه عن الكاهن ، والكاهن إذا اتفق له أن يكون صادقا لا يتجاوز بما يدعيه رتبته ومقامه ، فإنه إذا لاح له أمر النبي عرف فضله وسارع إلى تصديقه ، وكان أول مؤمن به ومتتبع لأوامره ، كما روى عن سواد بن قارب وطليحة وغيرهما[٢] وإن كان النبي عرضة للسهو كما فى حديث ذى اليدين[٣] ولهذا يستعين الكاهن بالكلام المسجوع الموزون، ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على الاتصال الناقص ، فيهجس هجساً ربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر خارج عن ذاته المدركة مباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ، وربما يفزع إلى الظنون ويلوذ بالتخمينات ، حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويها على السائلين ؛ وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ؛ وقد قال الرسول هذا من سجع الكهان ، فخص السجع بهم ، وقال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر؟ « قال يأتينى صادق وكاذب فقال خلط عليك الأمر ، أى أن النبوة خاصتها الدقة بحيث لا يعتريها الكذب أبداً ، لأنها اتصال من ذات النبي بالملأ الأعلى دون استعانة بأجنبي — كما هو الحال فى الكهانة[٤] وربما يتحرى الكاهن الكذب عامداً مخافة أن يبور سوقه وتكسد بضاعته ، فيخبر بما لا أثر له فى نفسه ، وما لا يجد له حركة ، وذلك لتمويه أمره ،

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ١٠٣

(٢) ابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ١١٤ وابن خلدون ص ٨٨ — ٨٩

(٣) أبو حيان التوحيدى ص ٢٢٧ وقد ورد الحديث مفصلا فى الهامش

(٤) ابن خلدون ص ٨٧ — ٨٨

فيضطر بذلك إلى الظنون والتخمينات[١] وربما عمد إلى الكذب طمعاً فى النبوة ؛ ويحملهم هذا على عدم التسليم بنبوة من يعاصرهم من الأنبياء ، كما وقع لأمية بن الصلت وابن صياد ومسيلمة وغيرهم ، فإن غلب الإيمان وانقطعت أمانيهم فى النبوة آمنوا أصدق إيمان — كما أشرنا من قبل[٢] .

وقد ذهب بعض المفكرين إلى أن الكهانه قد انقطعت بمجىء الرسول[٣]، وأن الكهان قد حرموا بعد بعثة النبى من كشف الغيب ، حتى ورد فى بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة ، ولهذا فليس يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم لأن هذا من دلالات الكفر ، فقد قال النبى: من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ـ كما يروى الماوردى[٤] ـ وقيل إن النبى حين بعث وحرست السماء بالشهب ، ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة ، بطل علم الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وأطلع نبيه بالوحى على ما شاء من علم الغيوب التى عجزت الكهنة عن الإحاطة بها ـ ولكن بعض المفكرين لا يسلم بهذا الرأى ، ويرى أن علوم الكهان قد تكون مستمدة من الشياطين ، وقد تكون من فيض نفوسهم ، والآية القرآنية التى نزلت فى هذا الصدد، إنما دلت على منع الشياطين من معرفة نوع واحد من أخبار السماء ، وهو ما اتصل بأخبار البعثة ، أما ما سوى ذلك فإنه مباح لهم ، ثم إن هذا الانقطاع قد اقتصر على زمن النبوة ، ولم يتجاوزه إلى غيره من أزمان ، فلعل الشياطين أن تكون قد عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه قبل عهد النبوة ، فإن هذه المدارك تخمد

---

(١) ابن مسكويه ص ١١٣ (٢) ابن خلدون ص ٨٩

(٣) ابن حزم ج ٥ ص ١٧

(٤) حاجى خليفه : كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ والقنوجى ص ٦٠٠

زمنها كما تخمد الكواكب والسرج عند ظهور الشمس ، وقد زعم الحكماء أن الكهانة توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت ، لأن وجود النبوة يتطلب وضعا فلكياً يقتضيه ، ويتمشى تمام النبوة طرديا مع تمام ذلك الوضع ، عكسياً مع نقصه ، ونقصه يقتضى وجود طبيعة تشبهه فى النقص ، وهى طبيعة الكاهن ، وعلى هذا فإن الوضع الناقص الذى يقتضى قيام الكهانة ممثلة فى فرد أو أفراد ، يسبق الوضع الكامل الذى يستلزم وجود النبوة ، وقد انقضت الأوضاع التى تدل على مثل تلك الطبيعة ، فليس يوجد منها شىء بعد ، وقد قرر الحكماء هذا استناداً إلى أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره ، وهذا غير مسلم به ، فإن الوضع قد يقتضى ذلك الأثر ناقصا بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها ما اقتضى نقصها شيئا ، وقد رأينا أن للكهان بعض الوجدان من أمر النبوة ، كما أن فى كل إنسان بعض الوجدان منها إبان نومه ، ونسبتها فى الكاهن أعظم منها فى النائم ، وقد عرفنا موقف الكهان من النبى إن عاصروه[1] . وإذا كانت الكهانة نموذجا من النبوة أوضح من نموذج الرؤيا الصادقة ، فإن بعض الكهان قد طمع فى النبوة كما عرفنا من قبل ، وليس من العسير أن يعرف نبأ الكاهن الذى يدعى النبوة زوراً ، فإن معجزة النبي فعل خارق للعادة بالتحدى يؤيد النبوة عن الله ، أما الكهانة فإنها كلمات تجرى على لسان الكاهن ، تتراوح بين الصدق والكذب ، والنبى لا يكون إلا كامل الخلْق والخلُق معاً ، أما الكاهن فإنه يكون مختل العقل ناقص الخلق مزوراً ، فإن ادعى النبوة بكهانته فقد انكشف أمره ، إذ قد يتصدى له كاهن آخر ويتحداه بكهانته ، فتمتنع الفروق بينهما ، وذلك ما لا يقع فى حال النبوة أبداً[2] .

---

(١) ابن خلدون ص ٨٨ — ٨٩

(٢) الشعرانى : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤٥ وما نظن أن سائر المفكرين يسلمون معه بأوصاف الكاهن على النحو الذى أسلفه ، ولعل اختلال العقل يساعد على التكهن ولا يعوقه ..!

مراتب الكهانة :

أشرنا فيما أسلفنا إلى الشائع من أصناف الكهان ، وهم يتفاوتون فى مراتب الكهانة ، والكاهن الأصيل لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى عناء كبير ، أما هؤلاء فإنهم يحتملون المشقات فى حصر جميع مداركهم الحسية فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف الكاهن على المرئى حتى يتراءى له المدرك الذى ينبئ عنه ، والكاهن لايشاهد هذا المدرك فى سطح المرآة ، بل إنه يديم النظر فى سطحها ، ويطيل أمره حتى يغيب عن البصر ، ويبدو بينه وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام تتمثل فيه صور تشير على الكاهن بالمطلوب سلباً أو إيجاباً ، وهو لا يدرك من أمر المرآة وصورها شيئا ، وإنما يكون إدراكهم نفسانياً لا يتصل بالبصر ، ومن ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها ، وللناظرين فى الماء والكأس ونحوها ، ومن هؤلاء الكهان من يكتفى بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيئه بالعزائم، ويخبر بعد هذا بما يدرك ، ويزعم بعض هؤلاء أنه يرى فى الهواء صوراً مجسمة تحكى له بالمثال والإشارة ما يبتغى إدراكه ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من غيبة من أسلفنا ذكرهم(١) .

نموذج من الكهانة :

نهضت دولة سبأ باليمن ، وكانت هذه على كثرة وديانها واتساع أرضها ، تعوزها الأنهار وتتهددها سيول الأمطار ، فأقام أهلها مئات السدود ، اتقاءً لشر السيول ،

---

(١) ابن خلدون ص ٩٣ ويشبه الأستاذ « مرجليوث » Margoliouth ذلك بما يعرف حديثا بـ Crystal-gazers (أنظر مقاله فى دائرة معارف الدين والأخلاق)

ورغبة فى الانتفاع بالمياه المحجوزة فى رى الأرض ، وكان سد مأرب أعظمها جميعاً ، حوّل جدب الأرض خصوبة ، وعقمها إنتاجاً ، ولكنه تهدم وسرعان ما أغرق الزرع وأحال الأرض بلقعا ، فتشتت أهلها ، ومضت غسان إلى الشام والأزد إلى عمان ... الخ وقد ورد ذكر هذا السيل فى سورة سبأ من القرآن الكريم .

ويقول مؤرخو الكهانة إن الكهان قد عرفوا نبأ السيل قبل وقوعه ، ونصحوا أولى الأمر فى البلاد بالعمل على اتقاء شره ، وكان هذا فى عهد عمرو بن عامر الذى تولى رياسة ولد قحطان ، إذ كان أخوه « عمران » كاهنا عقيما ، وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ، فأنبأ أخاه بما رأى فى كهانته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العرم . وبينما كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم ، إذ رأت سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئا إلا أحرقته ، ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد ، وأتت زوجها الملك وهى تقول إن ما رأته قد أذهب عنها النوم ، إذ رأت غيما أبرق وأرعد طويلا ، ثم أصعق فما وقع على شىء إلا احترق ، فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروع ، سكّنوا من جأشها ، حتى ثابت إلى نفسها ، ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفا لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ (دواب باليمن) منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها إن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ، ووثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتدل على غير جدوى ، فاستعانت بذنبها وحثت التراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا ، فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى

الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها فى الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما أقبلت على زوجها ، ألفت الجاريتين على الفراش ، فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما ، فكهنت هـذه وقالت — فى سجع الكهان المعروف — : « والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودَنَّ الماء كما كان فى الدهر السالف » . فسألها عمن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ . » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هى داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة . » قال وما هى ويلك .. ؟ قالت « أجلْ إن لى فيها الويل ، وما لك فيها من نَيْلْ ، فلى ولك الويل ، مما يجىء به السيل » فألقى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا ظريفة .. ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ... » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين .. ؟ قالت : « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جرذاً (فأراً) يكثر بيديه فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفِر ، وأن قد وقع بنا الأمر . » قال وما هذا الأمر الذى يقع ..؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل » فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى على قلبها خمسون رجلا .. ! فكَرّ إلى زوجته ، وأنبأها بالخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادنى منه ألم   وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجَم   أو تيس صِرْمٍ من أفاريق الغنم
يسحب صخراً من جلاميد العرم   له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سَحْباً من الصخر قضم   كأنما يرعى خضيرا من سلم

فقالت طريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجالسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك ، فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مُظَلَّلَة ، لا تدخلها شمس ولا ريح..! فلما فعل ، امتلأت الزجاجة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد .. ؟ قالت فى سبع سنين . قال ففى أيها يكون .. ! قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لـكُنْتُهُ ، ولا تأتى عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد فى غدها أو فى أثنائها ، ورأى عمرو فى منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك ، أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البـلاء واقع ، والخراب نازل ، فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلـكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سـبأ ، ولـكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال للأمر حتى أهانه ابنه وضربه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما .. ! فصاح : واذلاه .. ! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد ، وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن فى البلد الذى يرحل إليه ، فقال الـكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد ، » فـكان الذين نزلوه أزد عمان ، فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر « فـكان الذين سكنوه خزاعة ؛ قال : « ومن كان منكم يريد ... إلى آخر ما يحكيه رواة القصة[١] .

ولنا على هـذه القصة تعقيب نحاول فيه أن نحللها فى ضوء المنطق ، نرجئه إلى « موقفنا من التكهن الصنعى . »

---

(١) انظر المسعودى ج ٤ ص ٣٧٨ — ٣٩١ فى الطبعة الأوربية . وثمـة أمثلة أخرى كثيرة رواها المؤرخون ، من أهمها تـكهن « سطيح » بمجىء رسول الله (انظر الإبشيهى ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠)

— ٢ —

علم العرافة[١]

حدها وتمييزها عن الكهانة :

أشرنا إلى أن مفكرى الإسلام ليسوا على اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة ، وقلنا إنهم رغم هذا الخلاف فى شأن اتصال الكهانة بالزمن الذى يكشف أصحابها أحداثه ، يرون أن العرافة تكشف عن أحداث المستقبل وحده ، وقد عرفنا ذلك عند أهل اللغة كذلك ، ومن المفكرين من خص العرافة بالمعرفة التى تقوم على أسباب سابقة تمهد لهم ، ولعل الأصح أن نخص العرافة بما كان عن كسب وخبرة واستدلال وحدس ، فإن ذلك أدعى إلى الاتفاق مع حدها الذى نراه عند مؤرخيها، من أنها معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية ، بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما أو الاختلاط أو الارتباط ، على أن يكونا معلولين لأمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى المستقبل ، وخفاء الارتباط يشير إلى أن الاطلاع عليه ليس ممكناً للناس كافة ، والذين يهتدون إليه ، يعتمدون على

---

(١) يشير المستشرق پينس S. Pines فى كتابه عن مذهب الجوهر الفرد عند المسلمين إلى أن للجاحظ كتابا يسمى باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس ، نشره وترجمه K. Inostranzei ويقول إن لهذا الكتاب شأنا فى دراسة معرفة مفكرى الاسلام بمذاهب الهنود فى العرافة والفراسة . وقد نقل كتاب Pines إلى العربية صديقنا الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده (والترجمة لم تطبع بعد) .

ما تهيأ لهم من تجربة ، أو من فطرة أودعها الله فى نفوسهم ، عبّر النبى عن أصحابها بالمحدثين أى المصيبين فى الظن والفراسة ، وكم فى الكتب التى أرخت هذا من أحداث وقصص تثبت صحة ما يدعيه أصحاب العرافة[1] ونلاحظ من هذا الحد أمرين :

أولهما :

أن العرافة لا تقوم على طبيعة النفس دواما ، فربما استندت إلى ما تهيأ للعراف من تجربة ومهارة وذكاء — فإن صح هـذا — ولم يكن مؤرخوها أو ناشرو كتب تاريخها قد أخطأوا حين قالوا فى تحديد طريقتها « إما بالتجارب أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة » . إن صح هذا كانت العرافة فى بعض حالاتها تجىء اكتسابا ، ولا تعتمد على طبيعة فى نفوس أهلها .

وثانى الأمرين :

أن العرافة — فيما نرى من حدها — لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضى أو الحاضر ، وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده ، ولعل المفكرين على اتفاق بصدد الأمر الأخير (الاقتصار على كشف المستقبل) ، أما الأول فقد اختلفوا فى أمره ، حتى بدا هذا الخلاف عند المفكر الواحد . فمن ذلك أن ابن خلدون — وهو صاحب الفكر الناضج — يقيم العرافة على الفكر والحدس ، فيقول ما نصه « وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال — بالملأ الأعلى — فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين

---

(١) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٣ ، وحاجى خليفه ح ٢ ص ٢١ ، والقنوجى فى أبجد العلوم ج ٢ ص ٥٤٤ وما بعدها

بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك[1] . وقبل ذلك بصفحتين اثنتين يقرر عكس ذلك تماما ، أى أن العرافة تعتمد على الفطرة ولا تستند إلى الصناعة إذ يقول ما نصه :

« ثم إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين ... الخ[2] وقد أداه هذا التناقض بطبيعة الحال إلى أن ينتهى بالعرافة إلى نتيجتين متناقضتين ، فبينما نلاحظ أنه فى النص الأخير يعترف بأن العرافة من إدراك الغيب ، نجده يعقب على النص الأول قائلا « ويدعون بذلك معرفة الغيب ، وليس منه على الحقيقة .. ! » وقبل هذا التعليق بصفحة واحدة أشار إلى أنه مقبل على الحديث عن أصناف الإدراك الغيبى بعد أن أبان عن استعداد النفس البشرية له .. !

ولكن لا ينبغى أن يمنعنا هذا من تقرير الرأى الراجح ، وهو أن العرافة تقوم على استعداد فى بعض النفوس ، وتستند إلى صناعة تساعد هذا الاستعداد ، ولهذا اعتبرت إدراكا للغيب ، وإن صادفت من رجال الدين ما صادفته الكهانة من وجوه الإنكار ، والاستناد فيه إلى الأحاديث النبوية . وسنعرف هذا فى موقف الدين من هذه الفنون .

آفاقها :

تضمنت الكهانة الكثير من أصناف مدركى الغيب على نحو ما عرفنا من قبل ،

---

(١) ابن خلدون ص ٩٤ (٢) المصدر السالف ص ٩٢

وكذلك الحال فى العرافة ، وكما كان العرب يسمون كل من يتعاطى علما دقيقا كاهنا ، فكذلك أطلقوا على الطبيب والكاهن والمنجم والحاوى الذى يدعى علم الغيب عرافا ، ورغم سعة معناها على هذا النحو ، فإن بعض مؤرخيها قد اعتبرها من فروع الفراسة ، ولعل فى بعض ما أسلفناه من شرح معانيها ما يبرر إدخالها فى هذا العلم ، وفى الحديث النبوى السالف ما قد يؤيد ذلك ، وتقسيمها عند بعض مؤرخيها إلى ما يجىء اكتسابا وما يكون فطرة وطبيعة قد يقوى من هذا الاتجاه ، ولكننا آثرنا أن نفردها بالكلام لما بينهما من خلاف فى الموضوع ، أخصه أن الفراسة وإن كانت تكشف عن مجاهل مغيبة عنا ، فهى لا تكشف مستقبلا ولا ماضيا ، وإنما هى استدلال بالخلْق الظاهر على الخلُق الباطن كما سنعرف بعد .

نماذج من العرافة :

جرى العرافون على الاستدلال على المغيَّب عنهم ، بكلمة تسمع عقب السؤال أو منظر يُرى ، أو مكان فى الجسد يضع السائل يده عليه عند توجيه سؤاله ، إلى آخر هذه العلامات التى سنتناولها بالتعليق عند ما نعرض لإبداء رأينا فى أساليب التكهن الصنعى .

ومن أمثلة العرافة أن كان فى زمن هرون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرقت من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمرّ العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه دُرّ وياقوت وزمرد فى سفط .. ! فسأل الرشيد عن مكانه ، فقال العراف إنه فى بئر ، فوجدوه كذلك .. !! وسئل العراف فى ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخله أبيض

وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطبا وهو أحمر ، وهو لون الياقوت !! فلما سألتم عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو ، فعرفت أنه فى بئر .. ! فاستحسن الرشيد فراسته ، وأعطاه مالا جزيلا .. !

وكان أبو معشر وصاحب له مارّيْن فى خلاص مسجون ، فسألا عرافا ، فقال أنتما فى طلب خلاص مسجون ، فسأله أبو معشر : وهل يخلص ؟ قال نعم تذهبان فتجدانه خلص ، فوجدا الأمر كما قال .. ! فلما استفسر أبو معشر عن ذلك ، قال له العراف نحن قوم نأخذ الفأل بالعين والنظر ، فينظر واحدنا إلى الأرض ، ثم يرفع رأسه ، فأول شىء يقع نظره عليه ، يكون الحكم به . فعند أول سؤال وجهته إلىّ ، رأيت ماء فى قربة فقلت هذا محبوس ، وعند السؤال الثانى نظرت فإذا هو قد أُفْرِغ من القربة ، فقلت يخلص .. !!

وقد يستدل العراف بالمكان الذى يضع السائل يده عليه فى جسمه عند السؤال ، فالرأس يرمز إلى الرئيس أو الكبير ، والأنف بناء مرتفع أو تل أو ماأشبه ، والفم بئر عذبة ... الخ(١)

حسبنا هذا ، ولنرجئ رأينا فى هذه النماذج ، إلى « موقفنا من التكهن الصنعى » .

---

(١) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٤ ـ ٦ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٥٤٤ ـ ٥ وقد ذكر الإبشيهى (ج ٢ ص ١٠٣) قصة خلاص المسجون من غير إشارة إلى أبى معشر

— ٣ —

علم الفأل والطّـيرة والعيافة

يراد بعلم الفأل عند مفـكرى الإسلام ، الـكشف عن الحوادث المقبلة اعتماداً على كلام يسمع من الغير اتفاقا ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفوا، وقد جرى هـــذا فى غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما[١] . أما الطِّيرة فالشائع أنها تطلق على عكس ما يطلق عليه الفأل ، فإن المطلوب فى الفأل طلب الإقدام ، وفى الطيرة طلب الإحجام ، وأصل الطيرة أن يتشاءم المرء من شيء تتأثر النفس من وروده على الأسماع أو الأبصار تأثراً يغير الطبع ، فإن النفرة الطبيعية من الصوت الذى يحدثه صرير الزجاج أو نهيق الحمار أو نحوه ، ليست من هذا القبيل[٢] .

وقد جوز البعض استعمال الفأل فى الخير والشر معا ، وفيما يحسن وفيما يسوء ، ووردت الطيرة جنسا والفأل نوعا[٣] ، وفى اللغة ما يبرر هذا الاستعمال[٤] .

---

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ والقنوجى ص ٥٥٤

(٢) طاشكبرى ٢٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، والقنوجى ٢٣٦ وفى شيشرون Cicero الذى ذكرناه من قبل أمثلة كثيرة عند الرومان تقابل هذا الذى عرفه المسلمون .

(٣) أشار التهانوى إلى الفأل بهذا المعنى العام الشامل ج ١ ص ٩٠٧

(٤) طاشكبرى زاده ص ٢٩٩ وحاجى ج ٢ ص ٦١ والقنوجى ٥٥٦ وعند الرومان ما يشبه ذلك تماما ، قارن شيشرون فى الفقرة الاربعين من الـكتاب الثانى ، رداً على ماجاء فى الفقرة ٤٦ من الـكتاب الاول .

وقد شاعت الطيرة عند الكثيرين من العرب حتى تكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم ، وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة لاهتمامهم بالمناسبات البعيدة من حيث اللفظ والمعنى ، كالسفر والجلاء من لفظ السفرجل إذا سمعه أو اهتدى إليه ، وإذا رأى الياسمين قال يأس ومين ..! واستنتج من السوسنة سوء سنة ..! وإن بارح داره فاستقبل صاحب آفة تطير بيومه وتشاءم وهلم جرا ..!![1] ومن المعانى التى تحملها الطيرة والفأل : فن العيافة عند العرب :

فن العيافة :

أطلق البعض العيافة على أحد قسمى القيافة ، ونعنى به قيافة الأثر — لا البشر — وسنتحدث عنها بعد ، ولكن الذى جرى لغة وإصطلاحا أن العيافة زجر الطيور[2] ، وقد قال القاضى: إن العيافة هى الزجر ، وهو الفأل بأسماء الطيور وأصواتها وألوانها ، كما يتفاءل المرء بالعقاب على العقوبة ، والغراب على الغربة ، والهدهد على الهدى ، وقيل إنها تفترق عن الطيرة فى أنها تجمع بين التشاؤم والتسعد[3] ، ولكنا عرفنا أن أهل اللغة قد يوردون الطيرة جنسا والفأل نوعا . وعلى هذا فليس من فارق بينهما إلا فى أن العيافة قد خصت بالطيور ، فإن الأصل فى هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير

---

(١) قارن تاج العروس جـ ٨ ص ٥٤

(٢) القنوجى فى أبجد العلوم ص ٥٤٩ وقد أشار إلى أن هذا هو المعنى الذى يفيده القاموس والمصباح . وقارن فى العيافة إجمالا كثيراً من الفقرات التى وردت فى كتاب شيشرون تتبين الآراء المتقابلة بين المسلمين والقدماء ، وانظر الفرق بين العيافين عند الرومان وعند الأغريق وغيرهم ، فى الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثانى ، وتعليق « فالكونر » عليها .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى جـ ١ ص ٩٠٧

ـ وأُلحِق بذلك غيره من ظباء ونحوها ـ أو يعافونه ـ أى يصيحون به أو يرمونه بحجر ـ فإن ولّاهم فى طيره ميامنة سموه سانحا وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحا وتشاءموا منه[١] ، فالسانح مرجو عند العرب ، والبارح هو المخوف[٢] ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح ، وأهل التهائم بالضد من ذلك[٣] . وقد سمى الكاهن زاجراً لأنه إذا رأى ما يتوهم التشاؤم منه ، زجر بالنهى عن المضى فيه ، ويكون الزجر للدواب والإبل والسباع[٤] .

الفأل والطيرة بين التأيير والأنكار :

اختص العرب فى الجاهلية بالزجر ، وشاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام[٥] ، فقد عرفنا أن الطيرة قد عكرت على العرب صفو عيشهم ، فلما أقبل الإسلام نهى النبى عن الطيرة فقال : «لا طيرة ولا هامة ولا سفر» ، وكان يحب الفأل ، قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً ينادى : يا سالم ، فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا ... هذا ما رواه أهل السير والله أعلم بسنده فيما يقول بعض مؤرخى الفأل والزجر[٦] .

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ ، والقنوجى ص ٥٥٥ ، ٥٣٦

(٢) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ٨٠

(٣) المصدر السالف ج ٣ ص ٨٢ وانظر هذا الخلاف بين الأغريق واللاتين فى تعليق شارل أبون على الفقرة السابعة من الكتاب الأول فى شيشرون .

(٤) كان الرواقية يردون حركة السانح والبارح ـ من الطيور ـ إلى إرادة الله ـ انظر الفقرة ٥٢ من الكتاب الأول فى شيشرون وتعليق شارل أبون على ذلك .

(٥) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧٤

(٦) القنوجى ص ٥٥٥ وطاشكبرى زاده ص ٢٩٨ والأبشيهى فى المستطرف فى كل =

وقد اشتهر عمر بن الخطاب باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الإنذار ، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند ، أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال قريب ، فسأله عن أبيه فقال : ظفر ، فقال عمر متفائلا : ظفر قريب إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله(١) .

وانصرف جعفر البرمكى إلى داره فى وقت خلت فيه الطرق من المارة ، فسمع منشداً يقول :

يدبر بالنجوم وليس يدرى ورب النجم يفعل مايريد

فتطير ودعا بالرجل وسأله عما يقصد ، فقال إن البيت عرض له وجرى على لسانه على غير مقصد ، فأمر له بدينار ومضى لوجهه وقد أدركه الضيق ، فلَم يمض إلا قليل - فيما تقول الرواية - حتى أوقع به الرشيد(٢) ..!! وسنعود إلى مناقشة هذه الأمثلة ، وبيان اختلاف المسلمين فى الأخذ بها .

وقد شهد الشرع بجواز التفاؤل بالقرآن، وأيدت التجربة - فيما يقال - صدق هذا التفاؤل، ونقل عن الصحابة والسلف الصالحين، واشتهر الفأل الذى يؤخذ بفتح المصحف، وإن كان الأفضل الاعتبار بالمعانى دون الألفاظ والحروف(٣) ويسمى هذا بالاستخارة ويقول «لين» إن من يزاولها يبدأ بتلاوة الفاتحة وسورة الإخلاص، والآية : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يسقط المصحف بحيث ينفتح

= فن مستظرف ج ٢ ص ١٠٣ ويشبه هذا مايرويه « كونتوس الرواق » فى الفقرة الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين وغيرهما من الكتاب الأول من شيشرون ، وقد فند شيشرون هذا الاتجاه فى الفقرة الأربعين من الكتاب الثانى .

(١) عبقرية عمر ص ٣٦ (٢) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ص ٢٩٩

(٣) المصدران السالفان .

عرضا ، أو يفتحه عفوا ، ويستخلص الجواب من سابع سطر فى الصفحة اليمنى ، فإن لم يسفر عن جواب واضح ، كانت دلالة الكلام على الخير نذيرا ، وعلى الشر بشيرا ، وربما استعاض البعض عن ذلك ، بإحصاء حرف الخاء (خير) والشين (شر) فى الصفحة كلها ، ويستنبطون المطلوب من زيادة أحدهما على الآخر ..!![١] وروى الماوردى فى أدب الدنيا والدين ، أن الوليد بن عبد الملك ، قد استفتى المصحف يوما ، فكان فأله « وخاب كل جبار عنيد » ، فمزق المصحف وأنشأ يقول :

تهدد كل جبار عنيد ‏ ‏ ‏ فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجئت ربك يوم حشر ‏ ‏ ‏ فقل يا رب مزقنى الوليد

وتقول الرواية إنه لم يلبث إلا أياما يسيرة ، حتى قتل شر قتلة ، وصلب رأسه على قصره ، ثم على أعلى سور بلده[٢] ..!

ولكن البعض لم يسلم بجواز التفاؤل بالقرآن . وصرح الإمام أبو بكر العربى فى كتابه الأحكام فى سورة المائدة بعدم جوازه ، ونقله القرافى عن الإمام الطرطوشى ، وقال الدميرى ويقتضى مذهبنا كراهيته ، ولكن إباحه غير من عرفنا ابن بطة الحنبلى[٣] وإذا كان فتح الفأل من التنزيل ممنوعا فكيف بغيره من كتب الأنبياء والأولياء والمشايخ[٤] . وإذا كان بعض المؤرخين يتردد فى التسليم بالأحاديث النبوية التى تؤيد الفأل بكلمة تسمع عفوا ، ويتردد فى قبول سندها كما أشرنا من قبل ، فإن جمهرة المفكرين كانوا يترددون فى قبوله ، يقول ابن قيم الجوزية فى دار السعادة ـ ويردد صداه غيره من المؤرخين ـ إن ضرورة التطير وتأثيره لمن يخافه ويخشاه ويتغير منه ،

---

(1) E. W. Lane, p. 267 - 8 . ويعرض استخارة السبحة الشائعة

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ ‏ ‏ ‏ (٣) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١

(٤) القنوجى ص ٥٥٥

وأما من لم يبال به ، فإنه لا يتأثر منه أصلا ، ولا سيما إذا قال عند المشاهدة أو السماع: اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك . اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك[١] ـ وفى الحق إن هذه ملاحظة قيمة طيبة ، يعرف قيمتها من كان له اتصال بالدراسات السيكولوجية فى هذا المجال .

صفة الزاجر :

على أن الزجر لم يكن هيناً بهذه الصورة التى أسلفناها ، فليس كل امرىء بصالح لأن يكون زاجراً ، لأن هناك صفات ضرورية لا تتوافر إلا فى القليلين ، وفى ذلك يقول ابن خلدون « وأما الزجر فهو مايحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه بعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما ، كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم وعند ركود الحواس ، تتوسط بين المحسوس المرئى فى يقظته وتجمعه مع ماعقلته فيكون عنها الرؤيا[٢] فأين هذا مما أسلفناه .. وأين هو على وجه التحقيق من الفأل أو الزجر الذى يكون صدى لكلمة يسمعها المرء عفوا واتفاقا ..! إن قيمة الوصف السالف تتضح إذا نحن ذكرنا ماتهيأ للفأل والزجر على هذا النحو الساذج من عراقة القدم ، وسنعود إلى مناقشة هذا وتفنيد الأمثلة السالفة ، عند ما نعرض لبيان موقفنا من فنون التكهن الصنعى .

---

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ وطاشكبرى زاده ص ٣٠٠ والقنوجى ٥٥٦

(٢) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٣

— ٤ —

علم أحكام النجوم

علم التنجيم :

اصطلح المسلمون ـ فيما يقول الأستاذ « نللينو » C. A. Nallino ـ على تسميته بعلم ـ أو صناعة ـ أحكام (أو قضايا) النجوم ، وقالوا علم (صناعة) الأحكام ، ومنذ القرن الثالث عشر لميلاد المسيح ، سماه البعض « علم النجامة » ولكن علم أو صناعة النجوم أو التنجيم ، يطلق على التنجيم أو علم الفلك أو على العلمين معا ، ويقال للمشتغل بصناعة النجوم : الأحكامى أو المنجم ، وإن كان الأخير يطلق على الفلكى كذلك ، والتفرقة الدقيقة بينهما لم تحدث إلا فى القرن الغابر ، وقد جرى أكثر الفلاسفة وأصحاب فهارس العلوم والكتب الجامعة ، على نهج أرسطو وأتباعه فى تصنيف العلوم ، فاعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الطبيعية ، كالطب والفراسة والكيمياء وتأويل الأحلام ونحوه ، ولكن علماء الفلك والتنجيم وغيرهم من أمثال الفارابى وإخوان الصفا وابن خلدون ، قد جروا على نهج بطلميوس واعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الرياضية[١] والعلم الطبيعى والعلم الرياضى قسمان من أقسام الفلسفة ، ومن هنا جاء إقبال المشتغلين بالفلسفة ـ من أمثال الكندى ـ على التنجيم ، بل لقد أقبل على مزاولته أئمة الدين النزاعون للدراسات الفلسفية[٢] .

---

(١) نللينو فى مادة « التنجيم » بدائرة المعارف الإسلامية ـ فى نسختها العربية ـ وانظر كتابه : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ص ١٨ ـ ١٩ بوجه خاص .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرازق فى كتابه : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٤٨ و ٢٢٠

ميدان هذا العلم :

يراد بعلم النجوم معرفة الاستدلال على حوادث الكون والفساد بالتشكلات الفلكية - أى أوضاع الأفلاك والكواكب[١] ، ويتشعب إلى ثلاث شعب : أولاها علم الهيئة الذى يرمى إلى معرفة تركيب الأفلاك وكمية الكواكب وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن ، ويبحث ثانيها فى معرفة حل الزيجات وعمل التقاويم واستخراج التواريخ وما شاكل ذلك ، أما ثالثها فهو علم أحكام النجوم ، وهو العلم الذى يرمى إلى معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج وحركات الكواكب على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر[٢]

والقسم الأول نظرى والثانى عملى والثالث هوأحكام النجوم[٣] ، ويقرر إخوان الصفا فى الرسالة السابعة ، بأن النجوم « معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج وكمية أبعادها ومقاديرأجرامها ، وكيفية تركيبها ، وسرعة حركاتها ، وكيفية دورانها وماهية طبائعها ، وكيفية دلائلها على الكائنات قبل كونها »[٤] وهذا - فيما لاحظ الأستاذ نلينو من قبل - يتفق مع التعريف السالف فى معناه واشتماله على علم الهيئة وأحكام النجوم معا ، ولكن ابن سينا يجرى مجرى الفارابى وأكثر فلاسفة الإسلام

---

(١) طاشكبرى زاده جـ ١ ص ٢٧٦ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ والقنوجى ص ٦٧٢ والتهانوى ج ٢ ص ١٤٢٨ ، وفى مقدمة الكشاف ص ٤٤ ، ٥٠ - ٥١

(٢) إخوان الصفا : ص ٧٣ (فى الرسالة الثالثة وهى وقف على علم النجوم)

(٣) نللينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ص ٢٥ - ٢٦ وهو يشير إلى أن المقريزى قد نقل هذا النص حرفيا (فى كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٧ من طبعة مصر) من غير أن يشير إلى مصدره .

(٥) إخوان الصفا ج ١ ص ٢٠٣

من حيث إنهم لا يعتبرون أحكام النجوم من الأقسام الفرعية للحكمة الطبيعية ، كالطب والفراسة وتعبير الرؤيا وما أشبه ، وعلى هذا يراد بأحكام النجوم البحث فى دلالات الكواكب ... الخ . أى على ما يقع فى مستقبل الأيام أو فى حاضرها ، أو ما وقع فى ماضيها (١) . وقد فرّع بعض المفكرين علم النجوم إلى أحكام النجوم ـ الذى أسلفناه الآن ـ وإلى علم النجوم التعليمى وهو الذى يعد فى العلوم ، وأما الأول فإنه يعد فى القوى والمهن التى بها يقتدر الإنسان على الإنذار بما سيكون (٢) ، وفرعه بعضهم إلى علم النجوم التعليمى البرهانى وعلم النجوم الطبيعى ، ويراد بالثانى معرفة أحكام الكواكب وتأثيرها فى عالم الكون والفساد ، وأول ما اشتهر به فى الإسلام محمد بن إبراهيم (الفزارى) وكان يجرى على مذهب العرب ، وأعقبه محمد بن الجهم البرمكى ، أما من سلك مسلك العجم من الفرس واليونانيين وغيرهم فهم (يعقوب) بن طارق وما شاء الله الهندى وغيرهما (٣) .

والذى يعنينا هو علم أحكام النجوم ، وهو لا يعتبر ـ وفقا لحده السالف ـ من أجزاء علم الهيئة ، كما يخرج من نطاقه علم الرمل والجفر لأنه لا يبحث عن أحوال النجوم (٤) وقد فرق المؤرخون بين النجوم وأحكام النجوم فقالوا إن الأول يعرف

(١) الفارابى فى إحصاء العلوم : ص ٤٣ (نشرة زميلنا الدكتور عثمان أمين)

(٢) نفس المصدر السالف ص ٤٣ ـ ٤٤

(٣) ابن صاعد الأندلسى ، فى طبقات الأمم ص ٨٠ ـ ٨١

(٤) التهانوى في ص ٥٠ ـ ٥١ ولكن ابن خلدون يعد الرمل من فروع علم النجوم وقدنقل عنه هذا الرأى القنوجى فى أبجد العلوم ـ ص ٤٠ وذهب إلى هذا الرحالة « لين » Lane وسنعرف رأيه بعد قليل .

بالحساب فهو من فروع العلم الرياضى ، وأما الثانى فيعرف بدلالة الطبيعة على الآثار فهو من فروع العلم الطبيعى [١] .

ويستخدم التنجيم بوجه خاص - فيما يشير « لين » فى معرفة طوالع المواليد ، وتعيين أوقات الحظ ونحو ذلك ، وكثيراً ما يستخدم للتكهن بالبرج الذى يتأثر به الإنسان ، وذلك بعملية حساب تقوم على القيم العددية لحروف اسم الفرد واسم أمه ، وكثيراً ما يُستغل هذا لمعرفة التوافق عند الإقدام على زواج ، وقد عرف « لين » أن علم الرمل الذى يبدو فى صورة علامات ترسم عفوا على ورق أو رمل ، ويزعم أهله أنه يكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل - يقوم فى أصله على علم التنجيم [٢] .

فى تاريخ التنجيم وتطوره :

شاعت النجامة منذ الماضى السحيق عند قدماء الشرقيين من أشوريين وكلدانيين ومصريين ونحوهم ، ممن مكنتهم طبيعة بلادهم وحياتهم من ملاحظة النجوم ومراقبة حركاتها [٣] . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن آراء الهيلينيين (التى كانت مزاجا من التفكير اليونانى والروح الشرقى) فى مجال التنجيم والرؤيا والسحر ونحوه ، قد أصبحت عربية إسلامية فيما (يقول بكر Beker) ، وأن غير هؤلاء يرون أن الأفلاطونية الجديدة هى التى مكنت لعلم التنجيم عند بعض المسلمين من أمثال إخوان الصفا ، إذ أن القضاء عند أهلها هو علم الله السابق بما توجبه أحكام

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦

(٢) E. W. Lane فى كتابه السالف الذكر ص ٢٧١

(٣) شيشرون فى الكتاب الأول فى الفقرتين الأولى والثانية والاربعين .

النجوم[١] وإن كان المتكلمون من معتزلة وأشاعرة على اتفاق فى إنكار هذا العلم الذى يؤدى إلى إنكار أن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الأحداث[٢] .

وفى الحق إن مصادر التنجيم الإسلامى متباينة كل التباين ، وقد تتلمذ أهله على اليونان من أمثال بطلميوس وتوسر Teucer وأنتيوخُس ، وأخذوا عن مصادر بهلوية وهندية ، وضمنوا مصنفاتهم ما كان شائعاً فى أرض الجزيرة والشام ومصر ، ومن هنا كان الخلط فى الطرائق عند أمثال أبى معشر .

ولكن المسلمين يمتازون على من سبقوهم ـ فيما يقول الأستاذ نللينو ـ بأنهم بلغوا شأوا بعيدا فى الحسبانات ، إلى جانب جهودهم فى التلفيق بين مختلف الطرائق ، وقد عرضوا هذه الحسبانات فى رسائل فلكية إلى جانب مسائل أخرى فى حساب المثلثات الكرّى « ووضع الحاسبون توصلا لهذه الغاية كثيرا من الجداول الرياضية المفصلة ، وهم يختلفون فى هذه الناحية عن المنجمين اليونان والهنود الذين كانوا يقومون بحسبانات مبتسرة ، وكانوا يتنكبون عن الاستبحار فى الرياضيات المعقدة[٣] » .

ومن رأى الأستاذ نلّينو ـ وهو حجة فى هذا الصدد ـ أن العرب قد ظلوا على

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص١٤٦ ، وياقوت فى طبعة مرجليوث ص ٣٦٠

(٢) أبو حيان التوحيدى ، المقابسات ص ١٢٤ وقد أوضح هذا بشىء من التفصيل جلد تسيهر Goldziher فى مقاله عن موقف أهل السنة من علوم الأوائل (ترجمة زميلنا الدكتور بدوى فى كتابه التراث اليونانى السالف الذكر) وفى المقال معلومات طيبة عن التنجيم وموقف المسلمين منه، وإشارات قيمة إلى مصادر هامة فيه .

(٣) نللينو فى مادة التنجيم بالمصدر المذكور آنفا، وانظر فى التنجيم عند الاشوريين ـ ومنهم الكلدانيون ـ والمصريين ومن إليهم من القدماء ، الفقرة الأولى والثانية والأربعين من الكتاب الأول فى العلم بالغيب (شيشرون) .

جهل بصناعة أحكام النجوم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض ، ويصرح بأنه لا يكاد يجد من هذه الصناعة شيئا فى أشعار الجاهلية وأخبارها ، على وفرة ما يروى من اشتغال العرب بالكهانة والقيافة والزجر والطِّيَرة وما يشبه ذلك من أنواع التفاؤل ، وإن كان العرب الذين استقروا خارج جزيرتهم بعد أواسط القرن الأول ، قد قالوا بتأثير الكواكب فى السعد والنحس على الأخلاق ، ونقلوا هذا عن الأمم الأعجمية التى سكنت بلادهم ، أما حرفة المنجم وصناعة أحكام النجوم عند العرب فى القرن الأول للهجرة ، فإنه لم يعثر على ذكرها إلا فى حكايتين ينفى صحتهما[١] ، وسنعرض لهما عند حديثنا على التنجيم فى قصور الخلفاء .

ويرى « نللينو » أن الأمير خالد بن يزيد + ٨٥ هـ (حفيد معاوية مؤسس الدولة الأموية) هو أول من ترجمت له كتب فى الطب والنجوم والكيمياء ، وأن من المحتمل أن تكون كتب النجوم التى قيل إنها ترجمت له ، كتبا فى أحكام النجوم لا فى علم الهيئة[٢] .

ولا غرابة فى إيثار العالم الإسلامى لأحكام النجوم على علم الهيئة ، لأن الناس من سليقتهم مولعون بكل ما يثير الغرابة ويكشف عن آفاق المستقبل المحجب ، ولعل أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية ، هو « أحكام النجوم » المنسوب إلى هرمس ، والمظنون أن ترجمته كانت قبل انقراض الدولة الأموية بسبع سنوات ، وعند ما انقرضت هـــذه الدولة (١٣٢ هـ ٧٥٠ م) واختلط العرب بالمماليك والموالى ـ وأكثرهم من الفرس ـ استيقظت نهضة كان من آثارها ، شغف الخلفاء بتلك الفنون[٣] ـ على ما سنعرف بعد قليل .

---

(١) نللينو : علم الفلك ص ٣٢٤ وما بعدها

(٢) المصدر السالف ص ١٣٧ (٣) المصدر السالف ص ١٤٢ ـ ٣

وفى خلافة المنصور نقل أبو يحيى البطريق ، كتاب الأربع مقالات ـ الذى وضعه بطلميوس فى صناعة أحكام النجوم ، وأثر الفرس فى المسلمين عند بدء اهتمامهم بهـذه الصناعة تأثيراً ملحوظا ، فـكان نَوْبخْت والطبرى من الفرس ، وشاعت الاصطلاحات الفارسية فى كتب ماشاء الله(١) .

وقد أقبل المسلمون على دراسة هـذا العلم ، إقبالا نلحظه فى نشاط خصومه وأنصاره معا ، ونتبينه فى كثرة ما كتب عنه ، وقد ذهب « بكر » Beker فى مقاله السالف إلى أن مفـكرى عصر النهضة قد أخذوا عن العرب التنجيم والعرافة الهيلينية ، كما تضمنها الـكتاب المعروف « غاية الحـكيم » وإن كان هؤلاء ـ فيما يرى ـ أعظم من المسلمين نفاذا إلى باطن الأشياء ورغبة فى اكتشاف الحقيقة .

طرق التنجيم :

فى وسع المنجم المسلم أن يأخذ بثلاث طرائق كبرى لايتجاوزها :

١ — طريقة المسائل : ويراد بها الإجابة على أسئلة تتصل بحياة الناس اليومية ، من الإخبار بغائب أو معرفة سارة أو استعادة مفقود أو نحو ذلك ، وهـذه الطريقة أبسط الطرق وأشيعها .

٢ — طريقة الاختيارات : وهى اختيار الأوقات التى تلائم القيام بعمل ما .

٣ — طريقة تحاويل السنين : وتقوم على أن الصورة السماوية فى زمن المولد ، تحدد طالع المولود بالدقة ، وقد اتبعها بطلميوس ، وقد فصل الأستاذ « نللينو » فى بيانها وبيان غيرها من طرق ثانوية عند المسلمين(٢) .

---

(١) المصدر السالف ص ١٤٦ و ١٨١

(٢) نللينو Nallino فى مقاله السالف وانظرله أيضا مادة Stars (Sun, moon) فى الدين الإسلامى فى Ency. of Religion and Ethics

علم التنجيم بين أنصاره وخصومه :

ولعل من الخير أن نبسط فى تأريخنا لهذا العلم ، أدلة منكريه ورد مؤيديه عليها واحداً بعد واحد ، فإن ذلك أدعى إلى تحديد مكان هذا العلم فى رءوس الفريقين معا :

انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم ، وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندى وإخوان الصفا وفخر الدين الرازى[١] . وقد اشتغل الكندى بالنجامة ، وحقد عليه أبو معشر المنجم — فيما يروى صاحب الفهرست — وعرض المسعودى فى الجزء الأول لبيان آرائه فى تأثير العالم بالأشخاص العلوية ، وبهذا ربط الحوادث الأرضية بحركات النجوم[٢] فلنعرض لموقف منكريه ومؤيديه :

قال منكروه أن ليس فى معرفة الكائنات قبل كونها صلاح لإنسان من الناس « لأن فى ذلك تنغيصاً للعيش واستجلاباً للهم ، واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها »[٣] — ويبسط المنكرون ما يجنيه المشتغلون بالعلوم من وراء الطب والنحو والفقه والشعر والحساب والبلاغة والهندسة والهيئة ونحوها ، ثم يعقبون على هذا قائلين إن علم النجوم ليس كذلك ، فإن صاحبه وإن استقصى وبلغ الحد الأقصى ، فى معرفة الكواكب وتحصيل مسيرها ، واقترانها ورجوعها و ... حتى

---

(١) المصدران السالفان للأستاذ نللينو وتفصيل هذا فى المصدر الثانى .

(٢) مصطفى عبد الرازق باشا : فيلسوف العرب والمعلم الثانى ص ٤٢ — ٤٣

(٣) قارن إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ ، ج ٤ ص ٣٢٣ (مكرراً بألفاظه) وقارن هذا بالفقرة التاسعة من الكتاب الثانى (شيشرون) يتضح التشابه بين هذا الرأى واتجاه شيشرون الرومانى .

إذا حكم أصاب ، فإنه لايستطيع ألبتة قلب عين شيء ولا صرف أمر إلى أمر ولا نفى ملمة قد كتبت، ولا دفع سعادة قد أجمّت وأظلت ، فالعالم الحاذق فيه المتناهى فى حقائقه مضطر إلى الاستسلام للقدر ، فيتساوى بذلك مع أجهل الجهال — هذا على افتراض الصدق فيما يزعمه أهله[١] ، ولكن مؤيديه يردون قائلين إن الإنسان : « إذا علم ما يكون من حادث فى المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها ، لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل سائر الناس ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار ، ولحر الصيف بأخذ الكن ، ولسنى الغلاء بالادخار ، ولمواضع الفتن بالهرب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم » ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا الحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله ، والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع[٢] .

ومن وجوه الإنكار أن الثورى وهو أحد الأئمة المجتهدين (+ ١٦١ هـ) لقى المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الحدثان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشترى ، وأنا أرجو رب المشترى ، وأنت تغدو بالاستشارة وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا .؟[٣] ذلك أن المنجم إنسان ناقص الأصل زائد الفرع ، وزيادته لا ترفع

---

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ١٢٠ — ١٢٣ وقارن الفقرة الثامنة فى الكتاب الثانى لشيشرون تعرف وجه التشابه بينهما .

(٢) إخوان الصفا جـ ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ وقارن الفقرة العاشرة من الكتاب الثانى فى شيشرون ، فبين هذا الرأى ومذهب الرواقية تشابه ملحوظ

(٣) المقابسات ص ٩٢٣

نقصانه ، لأن النقصان بالطبع والـكمال بالعرض ، والمنجم بعمله يبارى الله وينازعه علمه ويتتبع غيبه[١] .

ولـكن مؤيديه يقولون إن من نظر فى هذا العلم وفـكر فى سعة هـذه الأفلاك وسرعة دورانها ، وعظم هذه الـكواكب وعجيب حركاتها ، وأقسام هـذه البروج وغريب أوصافها ، تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك[٢] والنظر إلى مافيه ، وليس هذا ممكناً بهذا الجسد الثقيل الـكثيف، ولـكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها ، استطاعت أن تصعد فى لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائحة فى قعر هـذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الـكون إلى الفساد ، وتارة من الفساد إلى الـكون ، وفى أقوال الأنبياء والحـكماء مايشهد بما نقول[٣] . والنظر فى هذا العلم يعين على الترقى إلى ماهو أشرف وأجل ، فهو ينبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة[٤] .

وقيل فى مهاجمته إن أحكامه وإن لم تبطل من أساسها ، فإنها لا تصح بأسرها ، وليس هذا بالهين اليسير[٥] ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك ، وقد يقتضى

---

(١) المصدر السالف ص ١٣٣

(٢) أطلق العلماء كلمة العـالم على كل ما فى الوجود من كائنات ، وما يتصل بها من صفات وقالوا انه ينقسم إلى عالم الأفلاك أى العالم العلوى وإلى عالم الـكون والفساد أى العالم السفلى أو هو عالم الأركان أو العناصر الأربعـة من هواء ونار وماء وتراب أعلى سطح الفلك المحيط إلى منتهى مقعر سطح فلك الأثير (فلك القمر) ثم ما يلى الهواء ، وأما عالم الأركان من مقعر سطح فلك القمر إلى منتهى الأرض — وفوق الفلك تقوم النفس الـكلية التى تسرى قواها فى أجسام العالمين جميعا — انظر إخوان الصفا ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠

(٣) إخوان الصفا ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٤) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ وكرر هذا بألفاظه فى باب السحر ج ٤ ص ٣٢٣ ..!

(٥) المقايسات ص ١٢٦

شكل الفلك فى زمان ما ، ألا يصح من أحكام النجوم شىء ، وإن غاص أهلها على وقائعها ، وبلغوا إلى أعماقها(١) .

ولكن مؤيديه يقولون إن الصناعة لا تبطل ولا تكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطاء فى استدلالاتهم ، فعلم النجوم وأدلته صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهله فى بعض استدلالاتهم أو أكثرها ، لأن الله هو الذى نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها ، وقد جعله الله معجزة لإدريس النبى ، « وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالاته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون فى قضاياهم ، باستدلالاتهم التى نصبوها فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، والأدلة التى نصبها البارى سبحانه وتعالى هى اختلاف حركات النبض وأصباغ البول وتغير أحوال المريض للعلل ، وهكذا أيضاً الفقهاء والحكام ، وأهل الفتوى فى أحكام الدين من الحلال والحرام ، قد يصيبون أو يخطئون فى قضاياهم واستدلالاتهم التى نصبها لهم البارى من آيات كتبه المنزلة . . . فخطؤهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصة عن التمام »(٢) .

وإذا كانت الحملات قد اشتدت على هذا العلم فإن ذلك لا يثير الشك فى أمره ، فإن العلماء لا يشكون فى علم وأدب تعلموه ، بقول المنكرين له والجاهلين به ، وكذلك الحال مع كل عاقل ، فإنه لا يترك عقيدته ومذهبه الذى نشأ عليه ، دون أن يتبين بطلانه وينكشف له عواره ، فإن دخول الشبهة على كل إنسان جائز وممكن ،

---

(١) المصدر السالف ص ١٣٤ ـ ١٣٥

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧ ـ ٣٨ وقارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول فى شيشرون (التشابه ملحوظ بين المسلمين والرومان) وقد أكد هذا المعنى فى الفقرة الثانية والثلاثين والخامسة والخمسين من الكتاب الاول .

رغم قيام الحق ووضوحه[١]. وقد كانت أحكام النجوم من أمهات الخلاف بين الناس مذ كانوا ، والعلماء فى حكمها على ثلاثة أقاويل : فمنهم من يرى معتقداً أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها فى هذه الأشخاص السفلية ، كما أن لها أفعالا وتأثيرات كذلك ، ومنهم من يسلم بدلالاتها ولا يسلم بفعلها وتأثيرها ، ومنهم من ينفى التأثير والدلالة عنها نفياً قاطعا ، ويقول إن حكمها حكم الجمادات والأحجار المطروحة فى البرارى والقفار ، ولكن مؤيدى النجوم يقولون إن منكرى دلالاتها قد انتهوا إلى هذا لتركهم النظر فى علم الأحكام ، وغفلتهم عن تعلمه وإعراضهم عن البحث فيه ، وأما الذين أيدوا دلالاتها فقد عرفوا هذا من طول التجارب وكثرة الاعتبار فى مرور الأيام والشهور والأعوام الكثيرة ، أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن . وأما مؤيدو دلالاتها وأفعالها فقد اعتبروا النجوم ملائكة له وملوكا لأفلاكه وسكانا لسماواته ، وقد عرفوا ذلك بعد النظر فى العلوم الرياضية ، وإحكامها بعد تعلمها والتدرب عليها بطول الزمان من الدهور والأيام ، ثم ارتقوا إلى معرفة العلوم الطبيعية ومنها إلى العلوم الإلهية ؛ ثم إلى علوم النجوم ونحوه ، وانتهوا إلى تسمية المؤثرات بروحانيات الكواكب فى الكائنات ، والذين ذكروا أن للنجوم مع دلالاتها أفعالا وتأثيرات فى الكائنات التى تحت فلك القمر ، قد عرفوا ذلك بغير طريق أصحاب الأحكام ، وهو طريق الفلسفة الروحانية والعلوم النفسانية والتأييد الإلهى والعناية الربانية[٢] وليس ذلك ببدع فإن علم النجوم جزء من علم الفلسفة[٣] .

---

(١) المصدر السالف جـ ٤ ص ٣٧

(٢) إخوان الصفا جـ ١ ص ٩٨ — ٩٩ ، جـ ٤ ص ٣٦ — ٣٧

(٣) المصدر السالف جـ ١ ص ١٠٨

وقد كان بطلميوس يرى أن التأثيرات المشعة من الأجرام السماوية ، تجعل طبيعة « القابل » مماثلة لطبيعة « الفاعل » وسواء أسلمنا بهذا الرأى ، أم أذعنا لرأى أهل السنة ، فإننا على الحالين مضطرون إلى التسليم بأن الأجرام السماوية لا تكون فاعلة بالحقيقة فى الحوادث ، وإنما هى مجرد دلالات عليها ليس إلا ، وتأثير النجوم مرهون بطبيعة كل منها ، وبموقعها بالنسبة للأرض أو بالنسبة لغيرها من النجوم ، ولهذا تخضع حوادث العالم ، كما يخضع الناس لمزاج من كثير جدا من التأثيرات السماوية المتباينة المختلفة ، المعقدة المتناقضة إلى أقصى الحدود ، وليس عمل المنجم إلا فهم هذه التأثيرات والجمع بينها[١] ، ويقول الكندى إن الله قد صير بعض مخلوقاته عللا لبعضها الآخر ، فالعلة تفعل فى معلولها آثار ماهى لديه علة ، وليس يؤثر المفعول المعلول فى علته الفاعلة ، والنفس علة الفلك لا معلولة له ، فليس يؤثر الفلك فيها أثراً ، إلا أن من طباع النفس أن تتبع مزاج البدن ، إذا لم تجد شيئاً ..[٢]

ولكن المنكرين يردون على هذا قائلين إن أصحاب صناعة النجوم يزعمون أنهم يعرفون الكائنات فى عالم العناصر قبل كونها ، لمعرفتهم قوى الكواكب وتأثيرها فى المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة ، والمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالتجربة ، وهذا أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل فى المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن ، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة ، يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم[٣] .

---

(١) نللينو فى مقاله المشار إليه من قبل .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرازق فى « فيلسوف العرب » ص ٤٢ — ٣

(٣) ابن خلدون ص ٤٧٨ — ٤٧٩ القنوجى ص ٦٧٤

علم التنجيم بين الإلهام والتجربة والاستدلال :

وذهب بعض مؤيديه إلى أن معارف علم النجوم لاتنال بالعقل أبدا ، ومن بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة[١] للسبب السالف نفسه . ولكن منكريه يقولون إن الضعفاء من المشتغلين بصناعة النجوم يذهبون إلى القول بأن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالوحى ، وقد كفونا مؤنة إبطاله ، فإن من أوضح الأدلة على فساده أن تعلم أن الأنبياء أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم لايتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون وحياً من الله ، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق[٢] .

فأما المتأخرون فيرون أن دلالة الكواكب على أحداث عالم الأركان دلالة طبيعية، من قبل مزاج يحصل للكواكب فى الكائنات العنصرية ـ كما ذهب بطلميوس ومن تبعه من المتأخرين ، فإن مثل النيرين وأثرهما فى العنصريات ظاهر ليس فى الإمكان إنكاره ، كفعل الشمس فى تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع ونحوه ، وفعل القمر فى الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة ونحو ذلك، وهو لايعتبر التنجيم من القضاء الإلهى ـ أى القدر ـ إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن ، والقضاء الإلهى سابق على كل شىء ، ذلك مايقوله بطلميوس وأشياعه ، ولكن من الحق أن نقول إن القوى النجومية ليست هى الفاعل بجملتها ، بل تشترك معها قوى

---

(١) الغزالى فى المنقذ من الضلال ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(٢) ابن خلدون ص ٤٧٩ والقنوجى ٦٧٤

أخرى فاعلة فى الجزء المادى ، كقوة الأب على التوليد ونحوها ، فإذا عرفنا القوى النجومية عرفنا فاعلا واحدا من جملة أسباب فاعلة للكائن ، ذلك بالإضافة إلى أن العلم بهذه القوى النجومية يقترن به حدس وتخمين حتى يرجح الظن بوقوع الكائن، وليس الحدس من علل الكائن ، وبغيره تصبح الصناعة مثاراً للشك ، وهذا كله على افتراض أن العلم بالقوى النجومية سيقع على سداده ولم تعترضه آفة . والاستدلال يؤدى بنا إلى القول بأن الفاعل هو الله ، وسنعرف حكم الشرع فى إنكار النجوم بعد ، وبذلك تنهدم أحكام النجوم عقلا وشرعا ـ فيما يقول ابن خلدون[١] .

وإذا كان من الواضح أن أهل التنجيم يصلون إلى معلوماتهم بالاستدلال والنظر والحدس والعلم بقوى النجوم ونحوها ، كان من البين أن هذا لا يدخل فى مجال الإدراك الغيبى ـ الذى عرفنا أنه لا يجىء اكتسابا أبدا ، وقد بلغ من صدق هذا الظن أن بعض مؤيدى التنجيم قد أعلنوا صراحة بأن المنجم لا يدعى إدراك[٢] الغيب .

وذلك بالإضافة إلى أن القائلين بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر ، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء ، مثل هؤلاء المنجمين يستندون إلى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية ـ كما عرفنا الآن ، ويكونون فى غير غيبة من الحس ، ومدارك الغيب لا تكون بغير هذا أبدا[٣] ـ والقول بأن العلم بأحكام النجوم يجىء عن وحى وإلهام إلهى كما قال المتقدمون من أهل هذه الصناعة ، قد وجد من ينكره من أمثال ابن خلدون على نحو ماأشرنا من قبل .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ والقنوجى ص ٦٧٤ ـ ٦٧٥

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ (٣) ابن خلدون ص ٩٧

وليس ينبغى أن يحتج أهل هـذه الصناعة بأن وجودها طبيعى للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم ، فإن الشر والخير طبيعتان قائمتان ليس فى الوسع نزعهما من طبائع الناس ، ولـكن هذا لا يمنع من السعى لا كتساب الخير ودفع أسباب الشر[١] ، ولـكن قيل إن الزجر عن النظر فى هذا العلم قد ورد لأصحاب النفوس الخبيثة والعقول النيئة ، التى لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحـكمة أو يتطاولوا إلى غرائب الفلسفة ، وإباحة النظر إلى هذا العلم والتسليم بما قيل فى حسناته ، إنما ورد من أجل الممتازين فى عقولهم ونفوسهم معاً[٢] . على أنه إذا كان من الممكن ـ على طريق إجراء العادة ـ أن يكون بعض الحوادث سـبباً لبعضها الآخر ، فليس ثمة دليل على كون الـكواكب أسباباً للسعادة وعللا للنحوسة ، لا حساً ولا عقلا ولا سمعاً ولا شرعاً[٣] .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه فى قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء ، وقد ظل هذا النفوذ قائما حتى القرن الغابر ، حين أتى عليه قيام الحضارة الغربية عامة ومذهب كوپرنيكوس + ١٥٤٣ بوجه خاص ، ومن أجل هذا ظل قائما فى البلاد التى لم تغزها الحضارة الغربية ، وإن افتقد جلاله الذى

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والقنوجى ص ٦٧٧

(٢) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ١٣٨

(٣) حاجى خليفه ج٢ ص ٣٨١ وقد فصل فيه هذا الرأى ، وردد القنوجى صدى ما يقوله فى ص ٦٧٣ ولعلنا نلاحظ تشابه كثير من أدلة تأييد هـذا العلم وإنـكاره معا فى موقف أنصاره من الرواقية وخصومه من أتباع الأكاديميـة الجديدة كما يظهر فى كتاب شيشرون بقسميه الأول والثانى .

كان له فى العصور الوسطى ، ومن هنا نلاحظ أن قضاة اليمن لا يزالون ـ فيما يذكر نللينو ـ يزاولون صناعة أحكام النجوم إلى يومنا الحاضر[١] .

وفى الآثار الإسلامية وفرة من الأدلة تشهد بتسلل التنجيم إلى قصور الخلفاء ، وأثره الملحوظ فى تدبير الشئون العامة والخاصة ، سياسية أو اجتماعية أو غيرها :

التنجيم فى قصور الخلفاء :

يقول ابن خلكان ـ فى وفيات الأعيان ـ أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ، استدعى منجما وقال له : هل ترى فى علمك ملكا يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذى يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله ، « بذلك سمتنى أمى » وكتب وصيته[٢] .

وقد كان جعفر المنصور ـ ثانى الخلفاء العباسيين ـ يدنى المنجمين من حضرته ، ويستشيرهم فى أموره ، وكان نَوْبَخْت الفارسى[٣] يصحب المنصور ، ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسَيَّر له ولده أبا سهل . ويروى المؤرخون ـ أمثال ابن أبى أصيبعة وأبى الفرج والقفطى ـ أن المنصور لما حج حجته التى توفى فيها ، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين همّ ببناء بغداد (١٤٥ هـ) وضع أساس المدينة فى وقتٍ اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا فى حضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى والطبرى

---

(١) نللينو فى مادة التنجيم المشار إليها من قبل .

(٢) ولكن نللينو يرفض التسليم بهذه القصة ـ كما أشرنا من قبل ـ لأنها لم ترد فى كتب التاريخ المفصلة ، ولأن التنجيم لم يكن معروفا عند المسلمين فى هذا العهد (أنظر نللينو: علم الفلك ص ٣٣١)

(٣) يقول المسعودى فى مروج الذهب (ج ٨ ص ٢٩١ طبعة أوربية) إنه كان مجوسيا وأسلم على يد المنصور .

من المنجمين[١] . وروى البيرونى أن ابتداء البناء كان فى الخامس والعشرين من ربيع الثانى ١٤٢ للهجرة ، وأن نوبخت هو الذى تولى اختيار الوقت الملائم ، وأن هيئة الفلك فى ذلك الحين قد اتفقت على مثل هذا الشكل .

وقد روى أبو معشر المنجم ، عن ابن منصور وفئة من أقرانه فى التنجيم ، أن المأمون قد طلب إليهم أن يأخذوا طالعا لدعوى إنسان ، ومعرفة مدى الصدق فى دعواه ، فأحكموا طالعه وصوروه ، فوقعت الشمس والقمر فى دقيقة واحدة فى الطالع ، والطالع الجدى والمشترى فى السنبلة ينظر إليه .. !! فقال جماعتهم إن ما يدعيه صحيح ، وقال ابن منصور : « إن تصحيح الذى يطلبه لا يصح ولا يتم له ولا ينتظم ... لأن صحة الدعاوى من المشترى أو تثليث الشمس من تسديدها ، إذا كانت الشمس غير منحوسة ، وهذا الحال هبوط المشترى ، والمشترى ينظر إليه نظر موافقه ، إلا أنه كاره لهذا البرج ، والبرج كاره له ، ولا يتم التصحيح والتصديق ، والذى قالوا من حجة زهرية عطاردية ضرب من المخرقة والتزويق والخداع ، فأثنى عليه المأمون وأنبأهم بدعوى الرجل فى النبوة ، وما زال به حتى كف عن دعوته[٢] .

على أن كتب التاريخ تشهد بأن الخلفاء والحكام لم يكونوا على اتفاق بصدد الاعتقاد فى صدق المنجمين ، فالمسعودى يروى عند وصف وقعة مسكن بين عبد الملك ابن مروان ومصعب بن الزبير عام ٧٢ هـ ، أن الأول كان معه منجم مقدَّم ، وقد أشار على عبد الملك ألا يحارب له خيل فى ذلك اليوم ، فإنه منحوس ، وليكن حربه بعد ثلاث ، يُصِبْ نصرا ، فبعث محمد إلى أخيه عبد الملك يقول « وأنا أعزم على نفسى

---

(١) اليعقوبى فى البلدان ص ٢٣٨ طبعة ليدن الثانية عام ١٨٩٢ م
(٢) إخوان الصفاج ٤ ص ٣٢٥ ــ ٦

لأقاتلن ولا ألتفت إلى زخاريف منجمك ، والمحالات من الكذب ، فقال عبد الملك للمنجم ولمن حضره ، ألا ترون ! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال اللهم إن مصعبا أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت أدعو لنفسى ، « اللهم انصر خيرنا لأمة محمد » واقتتل محمد وأبلى ولكنه قتل[1] ...!

وإذا كان نللينو يأبى التسليم بهذه القصة[2]. استناداً إلى رأيه السالف الذكر ، فإن مجرد رواية المسعودى لها ، تحمل الدلالة على أن التنجيم لم يكن موضع تسليم وإذعان عند الجميع .

فروع النجوم :

حسبنا هذا مما قيل فى علم أحكام النجوم ، وقد فرعه بعض مؤرخيه إلى علم الاختيارات ، والرمل والقرعة والطيرة[3] ولا يسلم بعضهم بهذا التفريع .

وشبيه بعلم النجوم فى زعم أصحابه ، إدراك الغيب عند أهل الرمل الذى استنبطه لذلك قوم من العامة ، وأقاموه على أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ، ونسبوه إلى النبوات القديمة (دانيال أو إدريس) . ثم أهل حساب النيم الذين زعموا أنهم يعرفون عن طريقه الغالب والمغلوب فى الحروب ، ثم أصحاب الزايرجه ـ ولا سيما تلك التى تنسب إلى محمد السبتى ، من أعلام متصوفة المغرب فى أواخر المائة السادسة ، ولا ينكرها بعض المفكرين ـ استناداً إلى ما فيها من تناسب ، هو السر فى الحصول على المجهول من المعلوم كما يحدث عند أهل الرياضة ، ولهذا نسبت إليهم ، ولكن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٥ ص ٢٤٤ ـ ٦ طبعة أوربية .

(٢) نللينو : علم الفلك ص ٣٣١

(٣) ابن خلدون ص ٩٧ وقد فرعه « القنوجى » إلى مثل ما أسلفناه .

الذين يقولون هذا يأبون اعتبارها — وغيرها مما سلف الآن — من أدوات الإدراك الغيبي ، لأن الغيب لا يدرك صناعة وبضاعة كما قلنا من قبل[١] .

وقد أورد « لين » Lane صـورة زايرجة يستخدمها المسلمون عند التردد فى الإقدام على عمل أو الإحجام عنه ، وتتلخص فى مربع يرسم ويقسم إلى مائة خانة صغيرة ، يكتب فى كل منها حرف من الحروف كيفما اتفق ، وقبل الإقدام على استفتائها يقرأ الإنسان الفاتحة ، ويعقب عليها بالآية التاسعة والخمسين من سـورة الأنعام « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يضع أصـبعه عفواً على إحدى خانات الجدول ، ويسجل الحرف الذى يقع عليه أصبعه ، ثم يدون الحرف الخامس الذى يليه ، ويكرر تدوين كل خامس حرف يجىء بعد ذلك ، حتى يصل إلى الحرف الذى بدأ به ، ومن مجموع هذه الحروف — الخوامس — وهى عددها بالطبع عشرون ، يتألف الجواب ..! وقد أجرى «لين » هذه التجربة فى جدول فى كتابه ، واستخلص جوابا معقولا ، ولـكنى أجريت هذه التجربة بنفس الطريقة التى رسمها ، فـكان مجموع الحروف بترتيبها السالف ، لا يحمل معنى معقولا .. !! ويقول « لين » إن أحب الزايرجات عند المسلمين أكثرها تعقيدا ، وأن عملياتها تعتمد على حساب أحكام النجوم[٢] .

لعل من الخير ألا نفرغ من الحديث عن أساليب التنبؤ دون أن نعرض فى شىء من الإيجاز لموقف مفـكرى الإسـلام من علمى الفراسة والسحر ، لأن كليهما قد تشعب عند بعض أهله ومؤرخيه حتى شمل التكهن بالغيب ، وقد عنى المسلمون بهذين العلمين تأييداً وإنـكارا ، ولهذا لزم الحديث عنهما معا :

---

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والقنوجى ص ٦٧٧

(2) E. W. Lane, Modern Egyptians p. 266-7

— ٥ —

علم الفراسة وأشباهها

اعتبر بعض المؤرخين(١) العرافة من فروع الفراسة ، ويكاد ينعقد الرأى على أن العرافة قد سخرت لمعرفة الغيب ، وإن رفض جمهرة رجال الشرع ومن ذهب مذهبهم التسليم بصحتها ، واعتبر البعض الكهانة من فروع العرافة ، كما أسلفنا الإشارة من قبل ، وإذا تخطينا الاضطراب فى التصنيف والتفريع عند هؤلاء المفكرين ، لاحظنا أن بعض كبار أهلها ومؤرخيها يوسع فى نطاقها حتى تشمل التكهن بالغيب — كما سنعرف الآن .

ماهيتها وآفاقها :

والأصل فى الفراسة أنها العلم الذى يستعين بما ظهر من أحوال الناس وهيئتهم من ألوان وأشكال وأعضاء — على معرفة ما خفى من أخلاقهم وطباعهم ، أو هو فى الجملة الاستدلال بالخلُق الظاهر على الخلْق الباطن(٢) وبرروا وجوده بقولهم إن المزاج إما أن يكون النفس أو آلة لها فى أفعالها ، وعلى كلا التقديرين السالفين لابد أن يكون الخلق — ما ظهر منه وما بطن — تابعا للمزاج ، وإن صح هذا كان الاستدلال بالخلُق الظاهر على الخلْق الباطن ، جاريا مجرى الاستدلال بحصول أحد المتلازمين على

(١) القنوجى ، أبجد العلوم ج ١ ص ٤٠

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٧٢ والقنوجى ص ٥٥٦ — ٥٥٧

حصول الآخر ، ولا شك أنه نوع من الاعتبار صحيح ، ويؤيده الكتاب والسنة والعقل جميعا ، على نحو ما أبان أهل العلم ومؤرخوه[١] .

تفريع الفراسة :

ولكن بعض مؤرخيه قد شطروه شطرين : أحدهما يحصل بالتجربة التى دلت على أن الظاهر ينبئ عن الأخلاق الباطنة[٢] ، فهو علم يقينى الأصول ظنى الفروع[٣] وثانيهما الفراسة الشرعية التى تحصل بنور اليقين بوساطة تزكية النفس عن الأخلاق الرديئة ، وتصفية القلب عن الصفات الذميمة ، حتى ينظر بنور الله فيكون الله بصره وسمعه ، إن الله لا يخفى عليه شىء لا فى الأرض ولا فى السماء[٤] ، وفى هذا النوع من الفراسة يقع فى القلب خاطر يحدد حال الإنسان وصفته ، دون الاستعانة بعلامة جسمانية أو إشارة محسوسة ، والسبب فيه ما ثبت من أن جواهر النفوس الناطقة مختلفة بالماهيات ، فمنها ما يبلغ غاية الإشراف والتجلى عن العلائق الجسمانية ، ومنها مالا يكون كذلك ، وكما أن النفس تقوى على معرفة الغيوب إبان النوم ، فكذلك النفس المشرقة الصافية قد تستطيع معرفة الغيب حال اليقظة ، وتختلف مثل هذه النفوس كمّا وكيفا[٥] وهكذا تسللت الفراسة إلى ميادين التكهن بالغيب ، وأيدوها

---

(١) فخر الدين الرازى فى كتابه الفراسة ص ٤ — ٦ (وقد نشره زميلنا الدكتور يوسف مراد مع ترجمته إلى الفرنسية والتمهيد له بمقدمة علمية قيمة) وفى التهانوى ج ١ ص ٤٤ ، وج ٢ ص ١١٢٣ عرض للرأى السالف فى صلب الكلام .

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ (٣) الرازى ص ٧

(٤) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣

(٥) الرازى فى الفراسة ص ٦ ، والتهانوى فى كشافه ج ٢ ص ١١٢٣

بآيات الله وأحاديث الرسول وشواهد العقل ، وقد قال النبى اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وقوله كان قبلكم من الأمم محدثون ، فيه إشارة إلى الفراسة الطبيعية — وهى التى فطر الله النفوس عليها ، فالفراسة الشرعية هى معاينة المغيبات بالأنوار الربانية ، فمن راقب أحواله وأنفاسه ، وتجنب المعاصى — ما صغر منها وما كبر، وتخلق بالأخلاق النبوية وتحلى بالآداب المصطفوية ولم ير خيرا ولا شرا ولا نفعا ولا خيرا إلا من الله ... كانت فراسته كالشمس تسطع أنوارها ، ولم ينطق إلا صدقا وحقا(١) وعلى هذا فمن معانى الفراسة اطلاع القلب على مجاهل الغيب بنور من إله(٢) وهذا اتجاه صوفى فى تفسيرها(٣) وعلى هذا فالفراسة إما أن تكون قائمة على ماظهر من أحوال البدن ، ويجرى فى هذا النوع التعليم والتعلم ، وإما أن يقوم الحكم فيها على مجرد القوة الحدسية ، وتلك هى فراسة الأنبياء وأكابر الأولياء(٤) .

قيل أن رسول الله يقول : « كان فيمن قبلكم محدثون وأنه لو كان أحد فعمر ابن الخطاب ، والمحدث المصيب فى ظنه وفراسته كأنه حُدِّث بالأمر — فيما يروى طاشكبرى زاده(٥) أو هو الملهم الذى يلقى فى نفسه الشىء فيخبر به حدسا وفراسة فيما يقول ابن الأثير(٦) . وقد كان عمر يقول « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » وتروى فى أمر فراسته روايات « قد يصدق منها القليل ، وتتسرب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهى أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة » فمن ذلك أنه أبصر أعرابياً نازلا من جبل ،

---

(١) طاشكبرى زاده ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ (٢) التهانوى جـ ٢ ص ١١٢٣

(٣) فى الرازى ص ٧ وفى التهانوى جـ ٢ ص ١١٢٣ ما يؤيد هذا

(٤) الرازى ص ٧ ولم يعن الرازى فى كتابه إلا بالصنف الاول وقد شرح فيه كل مالا بد من معرفته . (٥) مفتاح السعادة جـ ١ ص ٢٧٢

(٦) النهاية فى غريب الحديث جـ ١ ص ٢٤٠

فقال هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعراً لو شاء لأسمعكم ، ثم سأل الأعرابى: من أين أقبلت ؟ فقال من أعلى الجبل ، فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال أودعته وديعة لى، قال وما وديعتك ؟ قال بنى لى هلك فدفنته، قال فأسمعنا مرثيتك فيه ، فقال ومايدريك يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تفوهت بذلك ، وإنما حدثت به نفسى ؛ ثم أنشد أبياتاً ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له ... فى حلمه كان ذا وفى قدره
موتاً على العباد فما ... يقدر خلق يزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته ثم قال : صدقت يا أعرابى ..![1]

ومثل هذا يقال فى أبى بكر الصديق، وقد روى عنه صاحب «اللمع فى التصوف» شواهد تنبئ بصدق فراسته[2] .

والحديث عن الفراسة ، يجرنا إلى الحديث عن طرق أخرى لإدراك ضروب من الغيب ، إذ اعتبرت هذه الطرق عند بعض المؤرخين من فروع الفراسة[3] ، وإن رفض بعضهم التسليم بذلك[4] ، ولنبدأ بالحديث عن :

قيافة الأثر والبشر :

وتسمى قيافة الأثر بالعيافة أحيانا ، وهى القدرة على معرفة الهراب من الناس ، والضوال من الحيوان بتتبع آثار أقدامها وأخفافها وحوافرها فى الطرق القابلة للأثر،

---

(١) العقاد : عبقرية عمر ص ٣٤ وقد ذكر له مثالين آخرين .
(٢) أبو نصر السراج الطوسى : اللمع فى التصوف ص ١٢٣ من نشرة نيكلسون .
(٣) كالقنوجى فى أبجد العلوم جـ ١ ص ٤٠
(٤) الرازى ص ١١ — ١٧

ويكون هـذا بقوة القوة الباصرة والمتخيلة والحافظة[١] . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الإنسان على الاشتراك فى النسب والولادة وسائر وجوه الأخلاق والأحوال ، وقد اشتهر فى هذا العلم بنو مدلج وبنو لهب ، وهو يعتمد على قوة القوة الباصرة والحافظة ، فينشأ عن طبيعة فى أصحابه ، ولا يجىء تعلما واكتسابا، ومع هذا فهو حدس وتخمين ، لا استدلال ويقين ، وإذا كان الشافعى قد سلم به ، فإن أبا حنيفة قد أنـكره[٢] .

نماذج من قيافة الأثر :

وقد روى المسعودى أن بين أرض مصر والشام ، قوماً من العرب يتناول الإنسان من ثمر نخلهم ، فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فإن رأوه بعـد مدة عرفوا أنه الآخذ لثمرهم ، ولا يكادون يختلفون فى ذلك ..! وقد قَفَتْ القافة بقريش حين خرج النبى وأبو بكر إلى الغار حتى أتت بابه ، على حجر صلد وصخر أصم وجبال عالية لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تظهر فيه الأقدام ، حجبهم الله عن نبيه بما كان من نسج العنـكبوت وما سفت إليه الرياح[٣] ، وحار القائف وقال ها هنا تنتهى الأقدام ، والذين معه « لا يرون على الصلد مايرى ولا على الصوان مايشاهد ، وأبصارهم سليمة والآفات عنها مرتفعة والمواقع زائلة »[٤] .

---

(١) الرازى : الفراسة ص ١٢ وطاشكبرى زاده جـ ١ ص ٢٨٩ والقنوجى ص ٥٤٩ وحاجى خليفة جـ ٢ ص ٤٤ والأبشيهى جـ ٢ ص ١٠١ ومابعدها

(٢) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٢٥ وطاشكبرى زاده ج١ ص ٢٩٠–١ والرازى ص ١٢– ١٣ وانظر الابشيهى ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) التمس تحقيق ذلك فى حياة محمد للدكتور هيـكل باشا ص ٢٠٨ طبعة ثانية والابشيهى ج ٢ ص ١٠١ – ٢

(٤) المسعودى : ج ٣ ص ٣٤٢ – ٤ طبعة أوربية .

وقيل إن أولاد نزار بن معد الأربعة كانوا فى طريقهم إلى ملك نجران ، فرأوا أثر بعير فى مغارة ، فقال أحدهم إنه لأعور ، وقال ثانيهم إنه لأبتر ـ مقطوع الذنب ـ وقال ثالثهم إنه لأزور ـ معوج الصدر ـ وقال رابعهم إنه لشرود..! ثم لقيهم صاحب البعير وسألهم عنه ، فكرر كل منهم الوصف الذى ذهب إليه من قبل ، وأيقن الرجل بصدق ما قالوا ، فطلب إليهم أن يدلوه عليه ، فقالوا : والله ما حسسنا لك ببعير ولا رأيناه ..! فتبعهم الرجل حتى إذا بلغوا الملك، صاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك لقد أخذ هؤلاء بعيرى ، ثم أقسموا بأنهم لم يروه ، فدعا به الملك وسأل ضيوفه عن أمره ، فقال الأول رأيت البعير مجتهداً فى رعى الكلأ من شق لحسه ، والشق الآخر واف كثير الالتفاف لم يمسه ، فقلت إنه أعور . وقال الثانى رأيته يرمى ببعره ـ رجيعه ـ مجتمعا ، ولو كان ذا ذيل لفرق هذا الرجيع بتحريك ذنبه ، فقلت إنه أبتر، وقال الثالث رأيت أثر إحدى يديه ثابتا والآخر فاسدا فعلمت أنه أزور . وقال الرابع: رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الملتف الغض فلا يأخذ منه ، حتى يأتى ما هو أرق فيرعى فيه ، فعلمت أنه شرود ..! فقال الملك صدقتم ، وقال للرجل التمس بعيرك[١] .

قيافة البشر :

أما الآخذون بقيافة البشر ، فيقولون إن الأشباه تنزع ، ولا يجوز أن يمنع التشابه بين الولد وأبيه أو أحد من أهله ، من جهة من الجهات ، وقيل إن فى الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها[٢] ، ومن هنا كان نظر القائف إلى

---

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢ طبعة أوربية وقد عقب بذكر قصة أخرى يبين فيها صدق الفراسة عند هؤلاء . (٢) المصدر نفسه ص ٣٣٣ وانظر القنوجى ص ٥٨٦ـ٥٨٧

القدم ، لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة ، وقد يخالف الولد أباه فى كنه أفعاله ومظاهر خَلْقه ، ولـكنه فى الأغلب يوافقه فى القدم[١] .

ومن الأمثال التى ترد فى معرض الحديث عن الاستدلال بتركيب الإنسان على أخلاقه، أن تلامذة سقراط ـ فيما يقول صاحب تاريخ الحكماء ـ قد أرادوا أن يختبروا فراسة أقليمون ، فقدموا إليه صورة دقيقة رسموها لأستاذهم ، فلما تأملها وأمعن فيها، قال ـ وهو لا يدرى لمن هى ـ هذه صورة رجل يحب الزنا ، قالوا كذبت ، فإنها صورة بقراط ، فقال لابد لعلمى أن يصدق فاسألوه ، فلما رجعوا إلى أستاذهم قال صدق أقليمون ، فإنى أحب الزنا ولـكنى أملك نفسى وأضبط مابى من هوى جامح[٢] .

ولـكن هذا العلم مثار للشك عند بعض المفكرين ، لأن الناس يتشابهون فى حد الإنسانية ونحوه من الحدود ، ويفترقون فى غير هـذا من الصور ، وليس وجود الأغلب من الأشباه ، مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه ، دون أن يخالف ، من حيث أوجبته قضية العقل للخلاف والتباين ، والذين أذعنوا للتسليم بقيافة البشر من أهل الشريعة وفقهاء الأمصار ، استندوا إلى تعجب النبى منها ، وتصديقه محرزاً المدلجى ، والذين أنـكروها من فقهاء الأمصار ، استندوا إلى الدلائل الدالة على فساد الحـكم فيها ، وعلى أن النبى ألحق ولداً بأبيه مع عدم التشابه بينهما ، وبحجة أن العرق قد ينزع ، وأنباء الإبل تشهد بصحة ذلك[٣] .

---

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٣٨

(٢) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ والقنوجى ٥٨٦ ـ ٧

(٣) المسعودى ج ٣ ص ٣٣٣ ـ ٥

أشباه الفراسة :

ويدخل فى هذا الباب محاولة استكناه الأعمار فى طولها أو قصرها ، وما ينتظر الإنسان من سعادة أو شقاء ، وثراء أو عدم ، من الدلالات التى تحملها الخطوط القائمة فى الأكف والأقدام والجباه ، استناداً إلى مابينها من تقاطع وتباين وطول وعرض وقصر ، وما يفصل بينها من فرج متسعة أو ضيقة ، ويسمون هذا بعلم الأسارير[١] . ومعرفة أحوال العالم الأكبر من حروب وخصب وجدب ، من خلال الخطوط والأشكال التى ترى فى أكتاف الضأن والمعز إذا قوبلت بشعاع الشمس ، ويسمون هذا بعلم الأكتاف . وقلما يحرص أهله على معرفة الأحوال الجزئية لإنسان بالذات ، ولكنهم يحاولون معرفة مايعتور العالم من غلاء ورخاء وحروب ونحوها ، بأخـــذ ألواح الكتف قبل طبخه ، وإلقائها على الأرض أولا ، ثم النظر فيها والاستدلال بأحوالها من الصفاء والكدر والحمرة والخضرة على الأحوال الجارية فى العالم . وقد ردَّ البعض هذا العلم إلى الإمام على بن أبى طالب[٢] ، ولكن مثل «على» فى تقواه وفضله ، وورعه وذكائه ، لايشتغل بمثل هذه العلوم ، وقد نهى وشدد النهى عن استطلاع الغيب بمثل هذه الأساليب[٣] ، ومن قبيل هـذا علم الاختلاج الذى يبحث فى كيفية دلالة الاختلاج فى أعضاء الإنسان ـ من الرأس إلى القدم ـ

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٨ والقنوجى ٣١١ والرازى ص ١١

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ وحاجى خليفة ج ١ ص ١٠٤ والرازى ص ١٢

(٣) وما أصدق العقاد حين يقول فى التعقيب على نسبة علم الجفر إلى الإمام على « ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها ، هى من مدخول الكلام عليه وفى إضافة النساخ إلى الكتاب بعد وقوع الحوادث بزمن قصير أوطويل » (عبقرية الإمام ص ١٧٧ طبعة أولى) .

على ما ينتظر أن يصيبه من خير أو شر ، وإن كان عند مؤرخيه علما لايوفق فيه لضعف دلالته وغموض استدلاله[١] .

وقد اقتضت حياة الترحال عندهم ، التعرف إلى أحوال الأمكنة ـ من غير دلالة على هذا ـ بالأمارات السماوية تارة والأرضية أخرى (كشم رائحة التراب فى كل بقعة) وأطلقوا على هذا علم الاهتداء بالبرارى والقفار ، فساعدهم هـذا على تسيير القوافل على هدى وبصيرة من غير تيه أو ضلال[٢] .

ومن قبيل هذا معرفة استنباط المياه من الأرض عن طريق الأمارات الدالة على وجودها ، ومن قربها أو بعدها ، بشم رائحـة تراب منها أو رؤية نبات أو حيوان معين ، ويكون هذا بتوافر الحس الـكامل والتخيل القوى ، وقد أطلقوا على هذا علم الريافة[٣] . ويشبه هذا علم الاختيارات[٤] الذى ينصب على البحث فى أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر ، ويحدد الأوقات التى ينبغى الاحتراز فيها عن مزاولة الأمور أو يستحب فيها الإقدام عليها[٥] . ومثل هذا يقال فى علم القرعة[٦] وعلم نزول الغيث . وعلم الشالأت والخيلان والجفر والجامعة والزايرجه والرمل وغيرها[٧] وحسبنا الآن أن نشير إليها موجزين . وسنعود إلى التعليق على هذه العلوم ونماذجها السالفة عندما نعرض إلى بيان موقفنا من التـكهن الصنعى .

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٤

(٢) طاشكبرى زاذة ج ١ ض ٢٩١ وحاجى خليفة ج ١ ص ١٣٤ والقنوجى وغيره

(٣) الرازى ص ١٥ وكذلك حاجى خليفة ج ١ ص ٤٥٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٢ وانظر فى المصدر الأول ص ٧٣ والقنوجى ٣٥٢ فى استنباط الميـاه والمعادن

(٤) اعتبره ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٧ والقنوجى ص ٤٠ من فروع النجوم .

(٥) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٥

(٦) التهانوى ج ٢ ص ١١٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ١٠٦ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ والقنوجى ص ٥٨٤

(٧) تنظر فى هذه العلوم طاشكبرى‌زاده وحاجى‌خليفة والقنوجى والرازى والتهانوى وغيرهم

— ٦ —

علم السحر

أدرك الاضطراب تعريف السحر وتحديد آفاقه ـ كما أدرك الفراسة من قبل ـ واتسع معناه عند البعض حتى شمل ميادين التكهن بالغيب ، رغم أن مؤرخيه ليسوا على اتفاق فى تحديد موضوعه :

موضوع :

تبدو مظاهر هذا الاختلاف فى تعريف السحر عند باحثيه ، فأما أهل الفقه فقد نظروا إليه باعتباره عملا يتقرب به المرء من الشيطان ، ومعرفة تفاد من الجن ، وأما الحكماء فالأرجح عندهم أنه الإتيان بخارق ، عن مزاولة قول أو فعل محرم فى الشرع ، أجرى الله سنته بحصوله ابتلاء(١) ، وفى هذا الاتجاه روح إسلامى واضح ، والواقع أن الفلاسفة قد أقاموا السحر وحددوا آفاقه بشكل أوضح من هذا ، إذ قالوا إن السحر والطِّلَّسمات من آثار النفس البشرية ، ودللوا على صحة هـذا بأن للنفس آثاراً فى البدن تجرى على غير المجرى الطبيعى المألوف ، وتسير على غير أسبابه الجسمانية ، وقالوا إن الساحر لا يحتاج إلى معين لـكى يؤثر فى غيره — كما هو الحال فى صاحب الطلسمات ، والسحر اتحاد روح بروح ، وليس ائتلاف روح بجسم

(١) التهانوى فى كشافه ج ١ ص ٦٤٨

— كالطلسم — وهو — السحر — عند الفلاسفة فطرى لا يجىء اكتسابا ، إن صاحبه مفطور على تلك الجبلة الخاصة بذلك النوع من التأثير(١) .

ولكن بعض المفكرين قد وسّع معناه حتى شمل آفاقا جديدة غير الآفاق التى أسلفناها ، فقالوا إن من السحر ما هو بيان وكشف عن حقيقة الشىء ، وإظهاره بسرعة العمل ودقته ، « ومنه الإخبار بما يكون قبل كونه، والاستدلال بعلم النجوم وموجبات أحكام الفلك(٢) » . فاعتبروا النجامة سحرا ، وقال بعضهم إن الساحر قد يقوم بإخبار نبى بعينه ، فيبعث النبى حياً يجيب عما يسأل عنه من شئون الغيب ، وتشهد بهذا قصة « طالوت » ملك اليهود ، ونبيهم « شمويل » الذى بعثه الساحر حياً وأنبأ الملك عن عاقبة أمره ، وغضب الله على بنى إسرائيل(٣) .

ذلك أن أهل فلسطين قد ساموا اليهود الهوان ألوانا ، حتى إذا كان نبيهم « شمويل » — صمويل — استوحى الله فى اختيار ملك يتولى قيادتهم فى قتال أعدائهم ، فكان « طالوت » فأذعنوا لطاعته بعد تردد ، فتخير منهم من لا تشغله شئونه الخاصة عن محنة القتال ، ومضت هذه القلة تحت رايته إلى ملاقاة الأعداء ، الذين كثر عديدهم حتى أثار الفزع فى قوم طالوت ، ولكن الله أجاب دعاء هؤلاء وهيأ لهم النصر المبين على القوم الكافرين(٤) ، وكان مصرع كبير أعدائهم «جالوت» على يد — داود عليه السلام — مع حداثة سنه وقماءة جسمه ، ولكن طالوت

---

(١) ابن خلدون ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ وقد فصل الحديث فيما أجمعناه .

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ (٣) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣٠

(٤) اقرأ هذه القصة بالتفصيل فى التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازى ج ٢ ص ٢٩٣ ـ ٣٠٤ فى تفسيره للآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١ من سورة البقرة (طبعة مصر الأولى عام ١٣٠٨هـ)

فيما تقول كتب الأخبار التي تجرى مجرى التوراة عند اليهود — لم يرع الله في معاملة المغلوبين ، نخفّ هؤلاء لقتاله ، وأزعجته كثرة عددهم ، فطلب إلى خاصته أن يأتوه بساحر يسأله عن عاقبة أمره — وكان شمويل قد قضى نحبه — فجاءوه بساحرة اطمأن إليها وسألها أن تحيي له نبياً ، فسألته أى الأنبياء يختار ، فاختار « شمويل » فبعثه حياً ..! ولكنها فزعت عند رؤيته وارتاعت ، فسألها « طالوت » عمن رأت ، فقالت إنه شيخ بهى « مثل ملائكة الرب ، مشتمل ببرنس قد صعد من الأرض . فأدرك طالوت أنه شمويل ، فدخل إليه وسجد بين يديه » ، فقال شمويل يا طالوت لمَ أرجمتني وأحييتني ؛ قال لما ضاقت بى الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياى ، وزوال عناية الله عنى ومنعه الأحلام منى ، دعوتك لأستشيرك فى أمرى ، فقال شمويل إن الله تعـــالى قد نقل الملك إلى صاحبك داود ، وغضب عليك وعلى بنى إسرائيل ، جزاء ظلمكم للعماليق وقتلكم مواشيهم ، وسيكفل النصر لأعدائكم ، ثم خر مغشياً عليه ، فعرفته الساحرة ومن كان معها ، فأقبلوا عليه حتى أفاق وأضافهم ليلتهم وانصرفوا مصبحين ، ولما التحمت الحرب ، حطت الهزيمة على العبرانيين ، وكثر القتل فيهم « وقتل طالوت ثلاثة بنين واتكأ هو على حربته فأخرجها من ظهره ، فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود ، فدافع بهم من ناوأوهم[١] .

ويعمم إخوان الصفا مدلول السحر حتى يشمل الأنبياء ، فمن السحر فى رأيهم ما اختص به الأنبياء والحكماء ، ومنه ما اقتصر العلم به على النساء والعرب ، وقد سمى الأنبياء فى الأمم الخالية سحرة ، لأنهم أظهروا من المعجزات الباهرات ما حيّر الألباب ، كما سمى الحكماء قديما بالسحرة لأنهم كانوا يخبرون بالكائنات ، فيتكلمون

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣٠ — ٣٣١

بالإنذارات والبشارات بما يكون فى العالم من السرور والخيرات ونزول البركات والنعمات ، فنسبوهم إلى الكهانة لما عميت عليهم الأنباء ، ولم يعرفوا النبوة والأنبياء عليهم السلام ، وزعموا أن لهم أصحابا من الجن يأتونهم بأخبار السماء فيعلمون بذلك ما كان وما يكون » « وفى آيات القرآن ما يشهد بصحة ما نقول ، مع أن سحر الأنبياء يشبه العلم بالأمور التى ليس فى وسع البشر العلم بها ، إلا عن طريق الوحى والتأييد الإلهى ، وأخذها عن الملائكة ، وعن هذا يجىء الإخبار بالغيب بما كان وما يكون ، ولهذا كانت الجاهلية تقول عمن اعتنق الإسلام إنه قد صار إلى دين محمد ، وقد عمل فيه سحره ، وثمة سحر باطل يقوم على تنميق الباطل وإنكار الحق وإدخال الشكوك على المستضعفين حتى يصدوا عن دين الله[١] . وقد شمل السحر النجامة والكهانة أيام موسى[٢] ، مع أن النجامة كانت فى الجاهلية تشمل الزجر والكهانة[٣] .

مكان السحر فى مجال الإدراك الغيبى :

حسبنا هذا إجمالا للسحر فى مختلف آفاقه ، ولنحاول الآن بيان مكانه فى مجال الإدراك الغيبى — إن كان له مكان بعد هذا التضارب فى تحديد آفاقه :

ورد فيما أسلفناه ما يشير إلى أن الإخبار بالغيب ، يدخل فى نطاق السحر فيما يدعى أهله ، ومن أجل هذا عرضنا للحديث عن السحر لنبين عن مدى ما فى هذا الادعاء من حق أو باطل ، فإن أصناف السحر السالفة الذكر ، لا تعتبر غيباً بالمعنى

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ — ٣٤٩ وبعد قصة طويلة تؤيد بها هذا القول تعود إلى الحديث فى ص ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٠٢ (٣) المصدر نفسه ص ٣٦٥ وقد حذفنا ما يلى هذا من حديث عن طرق السحر وأنواعه ، لضيق المقام ، وكنا قد رجعنا فى تأريخها إلى طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧ و ٣٠٤ — ٥ وابن خلدون ص ٩٥ و ٤٣٤ والتهانوى ج ١ ص ٦٤٩ — ٦٥١ وحاجى خليفه والقنوجى ... الخ .

الإسلامى الذى أسلفناه — إذا استثنينا نوعا واحداً هو سحر الأنبياء — فيما يقول إخوان الصفا — فإن ما عداه يجىء اكتسابا برياضة النفس أو إجراء عزائم أو تسخير كواكب ، أو استعانة بجن وأرواح أرضية أو نحو ذلك من طرق ، ولكننا سلمنا من قبل بأن الكهانة تدخل فى نطاق الإدراك الغيبى ، رغم استعانة أهلها بالجن والشياطين ، لأن مرجع الأمر فيها إلى طبيعة أصحابها ، وقد عرفنا أن الفلاسفة يقولون إن السحر مرجعه إلى الاستعداد الطبيعى عند أهله ، ولكننا إذا رجعنا إلى تحديدهم لآفاق السحر ، وجدنا أنه لا يكشف — فى رأيهم — عن خفى الأمور والأحداث التى طواها الماضى أو أخفاها المستقبل ، وعلى هذا فليس من الممكن اعتباره إدراكا غيبيا عند جمهرة مفكرى الإسلام .

والسحر الذى تتوافر فيه شروط الإدراك الغيبى كما نص عليها هؤلاء المفكرون، هو سحر الأنبياء الذى يكشف عن مستقبل محجب ولا يجىء اكتسابا ، بل وحياً وتأييداً إلهياً ، ولكننا لم نجد من المفكرين من يعتبر هذا سحرا غير إخوان الصفا — وقد زعموا فى سياق تأييدهم له، بأن الأنبياء قد عرفوا السحر ولكنهم لم يستخدموه ، لأنه ضرب من الحيل ، ولم يبعث الرسل من أجل ذلك ، ولو أنهم فعلوا هذا لكانت استجابة الناس إلى دعواهم ، استجابة للخديعة لا إلى العلم الذى فيه نجاة النفوس ، ذلك بالإضافة إلى أن فوائد السحر تقتصر على العلم الأرضى ، والأنبياء دعاة العالم العلوى — الذى هو أعلى من عالم الأفلاك ، وقد أبى الأنبياء أن يضيفوا إلى تأييدالله ووحيه حيلة بشرية أو نيرنجية فلكية ، أما نحن فيجوز لنا استعمالها فى مصالحنا الدنيوية وهم فى غنى عما نفتقر إليه[1] .

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٤٧٥ — ٤٧٧ وفى غير هذه الصفحات ما يؤيد ذلك مثل ٤٣١ و ٤٢٣ وغيرها .

ولكننا نلاحظ بأن السحر لا ينسب إلى الأنبياء إلا مجازاً ، فإن جمهرة المفكرين لا يحتملون مثل هذا الرأى ، والذين زعموا بأن السحر إتيان بخارق وأنه يكون معجزة للأنبياء وكرامة للأولياء والصالحين ، قد صادفوا الكثير من حملات المنكرين لرأيهم . فأما الفلاسفة فقالوا إن المعجزة قوة إلٰهية تبعث فى النفس تأثيرا ، فالنبي يؤيد بروح الله على فعله ذلك ، أما الساحر فإنه يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين فى بعض الأحوال ، فبينهما الفرق فى المعقولية والحقيقة والذات فى نفس الأمر(١) ، وقد ذهب المتكلمون إلى أن الفارق بين المعجزة والسحر — والكرامة — أن الأولى تقوم على التحدى بها بإذن الله ، وهى واقعة بقدرة الله لا بفضل النبي — وقد أقاموا هذا الرأى على أساس فكرتهم فى العقل المختار ، وإن كانت أفعال العباد تصدر عنهم — فى رأى المعتزلة — إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، ولكن الحكماء الإلٰهيين ذهبوا إلى أن الخارق من فعل النبي وليس من الضرورى أن يكون مقترنا بالتحدى(٢) ، وكان أهل السنة يجوّزون قدرة الساحر على أن يسبح فى الهواء ويقلب الإنسان حمارا والحمار إنسانا بقدرة الله(٣) ، ولكن أهل الحق قد ذهبوا إلى أنه لا يقلب أحد عيناً ولا يحيل طبيعة إلا الله لأنبيائه وحدهم ، ولا يتبدل شىء مما فى العالم من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه إلا حيث قام البرهان على تبدله(٤) وفى المصادر التى نشير إليها إنكار بيّن لوصف الأنبياء بأنهم سحرة .

---

(١) ابن خلدون ص ٤٣٨

(٢) المصدر السالف ص ٨١ — ٨٢ ، وابن حزم ج ٥ ص ٧ — ١٠ يبطل هذا الرأى بخمسة أسباب يعرضها فى تلك الصفحات .

(٣) التهانوى يعرض الفكرة ويناقشها فى ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٥ ، ٦٤٩ — ٦٥٢

(٤) ابن حزم ج ٥ ص ٢ وما بعدها ، ويعرض الفكرة ويحمل عليها .

وعلى هذا فالرأى الراجح عند مفكرى الإسلام ، أن السحر لا يدخل فى نطاق النبوة ، وأنه إذا كان يكشف الغيب — ما اتصل منه بالماضى الخفى أو المستقبل المحجب ، فإنما يجىء هذا اكتسابا لا طبيعة وفطرة ، ولا وحياً وإلهاماً . فليس فى السحر وفروعه فى مختلف معانيها ما يمكن أن يدخل فى نطاق الإدراك الغيبى الطبيعى كما سلم به أهل الشرع ، على نحو ما أبنا فى الباب الذى عقدناه على « علم الغيب عند مفكرى الإسلام » .

وما ينبغى أن نفرغ من الكلام على السحر ، دون أن نسجل إعجاب الغربيين بمهارة المسلمين فى هذا الفن ، وحسبنا من هؤلاء الأستاذ « لين » Lane وقد روى الكثير من القصص التى شهدها فى مصر بنفسه ، منها أن الشيخ عبد القادر المغربى قد تمكن بسحره من معرفة اللص الذى سطا على أمتعة المستر سولت Mr. Salt قنصل انجلترا فى مصر ، وصرح بأن الساحر قد استطاع أن يستحضر أمام الوسيط — وكان صبياً صغيرا — صورة اللورد نلسون وشكبير وغيرهما من أصدقاء « لين » ومعارفه ..!! وأكد صدق هذه الظواهر مع اعترافه بجهله بسرها ، وتصريحه بأن الكثير من هذه التجارب قد فشل ، ولكنه يقول إنها كانت تبدو بين نجاح كامل أو فشل مطلق ، ولا وسط بينهما ، ويعقب قائلا إن مجلة Review Quarterly قد حاولت — فى عددها السابع عشر ص ٢٠٢ — ٢٠٣ — أن تفسر مثل هذه الظواهر ، بانعكاس الصور على سطح مرآة ، حيث تتلقاها عينا الصبى الوسيط ، على سحابة من الدخان ، ولكن « لين » رفض هذا الرأى تفسيراً لظواهر السحر التى رآها فى مصر(١) .

---

(1) Lane, p. 274-282

حسبنا الآن هذا عن أساليب التكهن الصنعى ، ولسنا ندعى بأنا قد أحصيناها وعرضنا للكلام عنها جميعا ، أو بأنا استوفينا الحديث عما عرضنا له منها ، لأن هذا بحث يطول أمره ، ويعوزه من الجهد والوقت فوق ما بذلنا وما قصدنا .

ولعل من الخير أن نقول الآن إن أساليب التكهن قد دخلها الزيف والدجل كثيرا ، واتخذها البعض أداة للاتجار ، مستغلا سذاجة الناس وسرعة التصديق عندهم ، طمعا فى اكتساب المال على حساب غفلتهم ، وقد مكّن لهذا الاستغلال اتصال التنبؤ بالميول الفطرية عند البشر(١) .

ولكن من الخير أن نبين عن موقف أهل الشرع من هذه العلوم ، وإن كنا قد عرضنا له قبل ذلك موجزين ، فقد يكشف هذا عن وجوه من التقابل بين موقف مفكرى الإسلام وموقف مفكرى اليونان والرومان قديما ، وإن كان من الضرورى أن ننص فى هذه المناسبة على أن موقف المسلمين مرده إلى الدين ، يلجأون إليه ، ويستمدون منه العون فى تأييد ما يرون تأييده ، أو مهاجمة ما ينكرونه من أساليب التكهن . أما فلاسفة اليونان والرومان فإنهم كانوا يلجأون فى مناقشة هذه الأساليب ودحضها إلى العقل ومنطقه ، ومن أيدها منهم استعان بالتجربة والمنطق أكثر مما استعان بتقاليد الشعوب وعقائده الدينية .

---

(١) اعترف بهذا « كونتوس » Quintus الرواقى ، فى ختام دفاعه عن فنون التنبؤ الطبيعى ، فصرح بفشوّ هذا الدجل فى روما قديما — (انظر الفقرة ٥٨ من الكتاب الأول فى كتاب العلم بالغيب لشيشرون) وقد شرح شارل أبون موقف مجلس الشيوخ الرومانى فى مقاومة هذا الدجل (فى تعليقه على الفقرة السالفة فى طبعة جارنييه) .

— ٧ —

موقف أهل الشرع من العلوم السالفة

اختلفت وجهات النظر عند المسلمين ، بين تأييد هـذه العلوم وتحريمها ، ولعل مؤيديها كانوا متأثرين بالتراث العقلي القديم ـ ولا سيما الهيليني الذى انتقل إلى المسلمين فى هذا الصدد ، كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الخلاف بين المتكلمين من معتزلة وأشاعرة ، وإخوان الصفا ومن إليهم فى مجال التنجيم ، أما منكرو هذه العلوم الصنعية فقد تأثروا ـ فيما يظهر ـ بالروح الدينى ، وتحقير كل تنبؤ لا يرد إلى وحى الله وإلهامه . ومن مظاهر هذا الخلاف أن نرى الغزالى يذكر العلوم التى يعتبرها العامة علوما محمودة وليس منها ، فيقول ماخلاصته : إن العلم هو معرفة الشىء على ماهو به ، وأنه من صفات الله تعالى ، فكيف يقال إنه مذموم ..؟ فى الحق إن العلم لا يذم لذاته ، وإنما يذم فى حق الناس لأحد أسباب ثلاثة ، يعنينا منها اثنان : (١) أولها أن يكون العلم مؤديا إلى ضرر صاحبه أو أذى غيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات ، وهو فى ذاته حق إذ شهد له القرآن ، والثابت أن الرسول قد سحر حتى أنبأه بذلك جبريل وأخرج السحر من تحت حجر فى قعر بئر ، فمعرفة السحر ليست مذمومة إلا لأنها أداة لإضرار الناس : (٢) أن يكون مضراً بصاحبه فى غالب الأمر ، كعلم النجوم ـ فهو فى نفسه غير مذموم لذاته ، وعلم الأحكام منه ما هو مذموم شرعا ، قال الرسول إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ... وقال أخاف على أمتى بعدى من ثلاث : حيف الأمة ، والإيمان بالنجوم ... وقال عمر تعلموا من

النجوم ما تهتدوا به فى البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :

ا) قد يظن الناس أن الكواكب هى المؤثرة فهى الآلهة المدبرة يرجى منها الخير ويحذر منها الشر من جهتها ، وينمحى بذلك ذكر الله[١] .

ب) أن أحكام النجوم محض تخمينات ، فهى لا تدرك يقيناً ولا ظنا ، وقد كان العلم معجزة لإدريس وانمحى ، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو محض اتفاق ، كتخمين الإنسان بأن السماء ستمطر اليوم استناداً إلى الغيم ، وربما ذهب الغيم فلا يصدق حدسه ، وكتخمين الملاح بأن السفينة تسلم اعتمادا على ما عرفه من أمر الرياح ، رغم أن للرياح أسبابا خفية لم يطلع عليها .

ج) أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يغنى ، وتضييع العمر فيما لا طائل تحته ، وما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن[٢] .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العلماء بين مسلم بهذا التقسيم ومنكر له ، فالسحر الذى أشير إليه الآن لم يتفق العلماء على حكم الدين بصدده ، وهم بين مبيح ومحرم ، وبعض مؤرخيه يقول إن أكثرهم قد أباحه ، وجعله بعضهم فرض كفاية لجواز ظهور ساحر يدعى النبوة ويظهر الخوارق بالسحر ، فيفترض وجود من يدفعه فى الأمة[٣] وقال بعضهم إن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق كما أن الكرامة لا تظهر

---

(١) أشار إلى هذا غير الغزالى من مفكرين ومؤرخين كالتهانوى ص ٥٢ وطاشكبرى زاده ص ٢٧٦ وبعض المستشرقين — على ما عرفنا من قبل .

(٢) الغزالى فى الأحياء ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ والسبب الثالث : ذم العلم لأنه لا يفيد فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها . . . وقد أعتبر التهانوى ص ٥٢ السحر والنجوم والطلسمات والتيرنجات علوما غير محمودة .

(٣) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧

إلا على يد متق مؤمن[١]، وليس له دليل من العقل إلا إجماع الأمة ، وعلى هذا كان تعلمه حراما مطلقا لأنه توسل إلى محظور ، وأما مايثير الدهشة مما يفعله أصحاب الحيل بالاستعانة بالآلات والأدوية ، أو مما يبدو من صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز[٢] وقيل إنه كفر لأن الأرواح الكافرة المعينة على السحر لاتجيب الساحر إلا إذا خرج عن دين الإسلام[٣] ، واحتج هؤلاء بآراء الأئمة الذين أجمعوا على تحريمه ، وإن اختلفوا فى كفر من يتعلم السحر ويعلمه[٤]، والراجح أنه حرم لأن رياضته إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والخضوع والتذلل ، فهى وجهة إلى غير الله[٥] فإن الأصولى الأندلسى أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى يقول : إن العرب اعتنوا بعلوم صححت الشريعة منها ماهو صحيح ، وأبطلت ماهو باطل ، ثم يذكر علم النجوم بين العلوم الصحيحة ، ويذكر العيافة والزجر والكهانة والضرب بالحصى والطيرة ونحوها بين العلوم التى أبطلتها الشريعة[٦] وهكذا تراوح علم النجوم بين التحريم والإباحة .

وذهب البعض إلى أن علم النجوم على ثلاثة أقسام : حسابات تعيينية فى علمها قد يعمل بها شرعا ، وطبيعيات كالاستدلال بانتقال الشمس فى البروج الفلكية على

---

(١) أشرنا من قبل إلى أن هذا رأى الحكماء الإلهيين فى ردهم على المتكلمين .

(٢) التهانوى جـ ١ ص ٦٤٨

(٣) الشعرانى فى اليواقيت جـ ١ ص ١٤٣

(٤) الشعرانى فى الميزان جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٥) ابن خلدون ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥

(٦) الشاطبى : الموافقات جـ ٢ ص ٤٦ (عن الاستاذأمين الخولى فى تعليقه على مادة تفسير فى دائرة المعارف الإسلامية) .

تغيير الفصول ، فليست بمردودة شرعا ، ووهميات (أحكام النجوم) كالاستدلال على الحوادث السفلية من اتصالات الكواكب ، فلا استناد لها من أصل شرعى ، ولهذا فهى مردودة شرعا، والأحاديث النبوية فى هذا كثيرة[١] .

وقال بعض منكرى هذه الأصناف من إدراك الغيب ، إن الله تعالى يقول : وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، وأن الرسول يقول : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد[٢] ، وقيل إن الكهانة على قسمين : فطرى وآخر كسبي ، (قيل إنه العرافة) وأن هذا هو الذى حرمت الشريعة سلوكه ، فوجب الاحتراز عن تحصيله واكتسابه[٣] . ولكن بعضهم يعترف بأن فى حديث أهل الكهانة مايعزى إلى الكفر[٤] . وقد أشرنا إلى موقف المفكرين من الكهانة بعد بعثة الرسول وهجماتهم عليها حتى أبى الكثيرون أن يسلم بوجودها بعد البعثة، والذين دافعوا عنها لم تسلم من حملاتهم دينيا ، وكان الفقهاء من متأخرى علماء الدين لايرون فارقا ـ فيما يبدو بين الفلسفة والكهانة والسحر والشعبذة والتنجيم والرمل.! ويحرمون الاشتغال بها[٥] .

على أن الاتجاه الشائع ـ رغم هذه الخلافات كلها ـ هو الذى عرضناه فى الفصل الذى عقدناه على « علم الغيب عند مفكرى الإسلام » وقلنا فيه إن الله وحده هو علام الغيوب، وأنه يهب العلم بالغيب من شاء أن يجتبيه من عباده ، وأن هذا الاتجاه قد انتهى إجمالا إلى تأييد التنبؤ الطبيعى فى مختلف فنونه ، وإنكار الصنعى فى شتى أساليبه .

---

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ وانظر القنوجى ص ٢٩٣ و ٦٢٣

(٢) التهانوى ج ١ ص ٥٢ ورواه الأبشيهى « ... فقد برئ مما أنزل على محمد ... »

(٣) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٩٥

(٤) حديث أبى سليمان السجستاني فى مقايسة الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ص ٢٢٦ من المقايسات .

(٥) قارن مصطفى عبد الرازق باشا فى تمهيده لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٨٨ ـ ٩ حيث يورد استشهادين رائعين فى هذا الصدد .

— ٨ —

موقفنا من التكهن الصنعى

عرضنا الأساليب التى كان يتبعها أصحاب التكهن الصنعى ، وقلنا إن جمهرة مفكرى الإسلام قد أبعدوها عن نطاق الإدراك الغيبى ، لأنها تستند إلى مهارة الصنعة ، ومنطق العقل وأدوات الحس ، ولا تصدر عن طبيعة أهلها وحدها ، أو تفيض عن وحى الله وإلهامه .

وهذه الأساليب مردّها ـ فيما يبدو لنا ـ إلى سعة الخبرة ، وبعد النظر ، وحسن التقدير ، وتوثب الفطنة والتبصر ، ووقدة الذكاء وسرعة البديهة ، وصدق الحدس ، ودقة الملاحظة ، وحسن الأفادة من سابق التجربة ، ونحو هذا مما رفض جمهرة مفكرى الإسلام إعتباره أداة لإدراك غيب محجب ، ولكن مناهج البحث العلمى لاترفض اكتشاف المجهولات ، متى أدت إليها مقدمات ، استناداً إلى القول بأن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما ، ومن هنا جاز القول بأن ما أسلفناه من أساليب التكهن الصنعى ، يصدق منه كل ماوضحت فيه روابط المعلول بعلته ، ويكذب منه فى منطق العقل كل ما افتُقِدت فيه هذه الصلات ، وإن كان من الضرورى مع هذا أن ننص على أن عجز العقل عن تفسير ظاهرة ما ، لايبرر التأدى ـ فى كل حال ـ إلى إنكار هذه الظاهرة[١] . وفى ضوء هذا ، نستطيع أن نحلل ـ موجزين ـ أهم ماأسلفناه من الأمثلة التى عرضناها فى أساليب التكهن الصنعى :

---

(١) سنعود إلى مناقشة هذا فى الفصل التالى .

ذكرنا نموذجا للكهانة يتمثل فى التنبؤ بسيل العرِم ـ الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وقلنا إن ظريفة الخير قد كهنت بأمر السيل فى رؤيا ، ثم تطيرت من مشاهد المناجذ والسلحفاة ونحوها ، فتنبأت بوقوع السيل الذى اجتاح البلاد على ماعرفنا ، والملحوظ من هـذا أنّا لانجد بين ما رأته وما انتهت إليه ، علاقة عِلِّية ، ومع هذا لانميل إلى تكذيب القصة ، لأننا نجد فى تحليلها مايغنينا عن إنكارها ، لأن من الميسور على أهل الخبرة والفطنة ودقة الملاحظة والعلم بقوة السيل فى كل عام ، وملاحظة التحلل الذى بدأ يدرك السد ، أن يتوقعوا عجز السد عن مقاومة السيل المقبل ، وأنه إن استطاع أن يصمد للسد عاما ، فلن تدوم مقاومته أكثر من سبع سنين ـ كما ورد فى القصة ـ وحسب ظريفة وأمثالها من الكهان ، أن يدركوا ذلك ، أو أن يتسامعوا به من أهل الخبرة والفطنة ، فإن هذا كفيل ـ من الناحية السيكولوچية ـ بأن ينشئ عند النوم حلما تبدو فيه سحابة تنهمر وسط رعد وبرق ، ويكبر المنظر فى منطق الحلم ، فلا تأتى السحابة على شىء إلا أحرقته .. !

وأما المشاهد التى تثير التطير والتشاؤم ، فإنها كثيرة فى حياة كل إنسان ، فى كل زمان ومكان ، فإن كان للمناظر التى رأتها تلك الكاهنة دلالة على غيب محجب ، فلماذا تكون دلالتها قائمة فى وقوع سيل مجتاح ، ولا تكون موت عزيز أو قيام حريق أو نزول وباء أو نحو ذلك ..؟

وأما الفأر الذى كهنت بوجوده فى السد ، واقتداره على قلب صخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلا ، فإن هذا مرده إلى الإغراب فى التصوير ، والتنميق فى التعبير ، أو مرجعه إلى القول بأن سدا كبيرا يتحلل ـ كسد مأرب ـ لايسهل تصوره خلوا من الفيران ، وفى استطاعة الفأر أن يحفر تحت الصخرة الكبيرة فإذا بها تهوى

مقلوبة ..! ولعل من قبيل الإغراب فى التصوير ، امتلاء الزجاجة بتراب البطحاء من غير ريح ، وظهور الحصباء فى سعف النخل ..!

ومن قبيل هـذا الذى يفتقد فيه العقل العلاقة بين المعلول وعلته ، مارويناه من أمثلة العرافة ، فى الاستدلال على المُغَيَّب بكلمة تُسمع أو منظر يرى أو نحو ذلك ، وليس من السهل أن نـكتشف علاقة عِلِّية بين نوى التمر الذى رآه العراف الأعمى ، والياقوت والزمرد وغيره مما سرق من خزانة الرشيد ، إنها علاقة تشابه فى الشكل أو اللون أو نحوه مما لا يمكن اعتباره علاقة علية بحال ما . ومن الواضح أن أشباه النوى فى غير الأحجار الـكريمة كثيرة . ولعل الأدنى إلى الصواب أن يقال إن العراف قد تسامع بأن الرشيد قد سرقت خزانته ، وليس هذا بالشىء الذى يكتم نبأه ، فرتب العراف على ماسمع ، كل ما ورد فى قصته ، ومثل هذا يقال فى قصة أبى معشر وخلاص السجين وغيرها من قصص .

وما قيل فى الـكهانة والعرافة ، ينسحب على الفأل والطيرة ، فإن ما وقع لجعفر البرمكى أو للوليد بن عبد الملك ، مرده إلى مجرد المصادفة فيما يلوح ، ولو لم يسمع جعفر الشعر الذى تطير منه ، لما كان فى حكم العقل أن يتغير مصيره من أجل ذلك . ولو لم يمزق الوليد كتاب الله ، ما كان يحتمل أن ينتهى ـ من جراء ذلك ـ إلى غير القتل والصلب . وما أجمل موقف عمر بن عبد العزيز حين أنـكر استفتاء القمر فيما ينتظره من أحداث ـ على ماروينا من قبل ، وهذا يشهد بأن المسلمين ـ كغيرهم من شعوب الأرض لم يكونوا على اتفاق بصدد الإذعان لهذا النوع من التطير والتفاؤل . وقد صدق ابن قيّم الجوزية حين قرر بأن التطير يكون لمن خافه وخشى مغبته ، وينعدم أثره عند من أغفل شأنه وأسقطه من حسابه .

فـكأن ابن قيم الجوزية ، أراد أن يقول : إن المثير الذى يؤدى إلى التطير عند

إنسان، قد يبعث على التلهى والتهكم عندغيره ، فالعبرة بمركز الاستجابة ، لا بمصدر الإثارة ، فإن المسكر ، يستجيب له أهل المرح بالغناء والرقص ، وأهل المزاج السوداوى بالكآبة والبكاء ، وأهل الشغب والإجرام بالتخريب والتدمير ..! فالمؤثر واحد ولكن الاستجابات بيّنة الاختلاف ، ومن هنا كانت مثيرات التطير عند أهله ، تفضى عند أصحاب الأعصاب السليمة والمزاج المعتدل والنظر المتزن ، إلى التندر الظريف بالتطير وأهله، وقد تحدث الدكتور طه حسين بك فى محاضرة له ، عن إسراف ابن الرومى فى التطير ، إلى حد ملازمة بيته أياما ، لأنه رأى جاره الأحدب أو نحو ذلك ، وعقب قائلا إن تشاؤمه وتطيره قد أصاب ديوانه ، فلم يعرض له أحد ، إلا أصابه من ذلك سوء ، « وبعض الناس يتندر بذلك ، لأن الأستاذ العقاد ، أراد أن يكتب عنه فسجن .! وأرجو ألا تكون محاضرتنا عنه مصدر شىء من هذه الأشياء التى أعيذكم أنتم منها إن لم أعِذ منها نفسى ..! »(١)

وقد تحدث الدكتور عن طبيعة ابن الرومى ، فى حدة مزاجه واضطرابه واعتلال طبعه وضعف أعصابه ، ودقة حسه التى تكاد تبلغ حد الإسراف . وذهب العقاد فى معرض حديثه عن طيرة هذا الشاعر إلى أن « الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشىء من ضعف الأعصاب واختلالها » ولعل الأستاذ يريد بضعف الأعصاب ، مايسميه الأطباء Neurasthenia وهى حالة تكون فى العادة وراثية ، وقد تنشأ عن ضعف البنية أو تتخلف عن الحميات والأمراض المعدية والإدمان على المخدرات والإصابات النفسية ونحوها ، وكثيراً ماتحدث عقب إجهاد لحيوية الجهاز العصبى ، وتؤدى إلى

---

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ (طبعة أولى)

قصور فى العقل والجسد وهى تسمى Psychasthenia إن كانت أغلب أعراضها نفسية(١)

« والرجل السليم لايتطير ولا يتشاءم لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ، ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثَم لا يحس الخوف والتطير منها ، وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة ، فتقع على نفسه موقعا خفيفا ، يملك معه عزمه ، ويضبط معه شعوره ، فهو فى غنى عن الحذر والتوجس ... أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة فى حسه ، والأشباح والأطياف كثيرة فى وهمه .. تتوارد عليه المنبهات ، وكل طارق فى الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج ـ فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ، ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون ، كما هو الشأن فى كل مستحضر للحذر ، متوقع للمفاجأة »(٢) فالتوقع واستحضار الحذر من كل مجهول ، هو سر التطير عند أهله .

أما شيوع التنجيم فى قصور الخلفاء فإن له مايبرره ، لأن الملوك والحكام أكثر الناس حرصاً على مراكزهم ، وتهيبا من مخبئات عدمهم ، ولا غرابة ـ إن صحت القصة ـ فى أن يتنبأ إنسان بوفاة الحجاج وهو مشرف على الاحتضار ..! وليس ثمة ماينفى علم المنجم بأن أم الحجاج كانت تسميه كليبا ..! ومثل هذا يقال فى الكثير من أحداث المنجمين مع الحكام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن من هؤلاء الحكام من رفض الاعتقاد فى صحة ما يقول المنجمون .

أما عن الفراسة وفروعها ، فليس من الغريب أن يصدق « الكثير » منها ، وإن كان الرازى يقول عن علم الشامات والخيلان والاختلاج والضربان ، ودوائر أبدان

---

(1) H. Letheby Tidy, A. Synopsis of Medicine p. 124 ff.
سادس طبعة ١٩٣٤ ـ وقد أمدنا صديقنا الطبيب الموفق الدكتور رجب عبد السلام (إخصائى الأمراض الباطنية بكلية الطب) بمادة طبية فى التعليق على هذه النقطة ، ولكن ضيق المقام حال دون نشرها .

(٢) العقاد : ابن الرومى ص ١٩٣ ـ ٤

الخيل ونحوها ، إن من المتعذر ردها إلى أصول علميه ، أو إرجاعها إلى تجارب مروية عن المتقدمين[١] ، ولكننا نرى أن مايصدق منها يمكن إخضاعه لقانون العلية ، وفى ضوء هذا نقول إن قيافة الأثر ، تبدو أصدق من قيافة البشر ، فقدرة أولاد نزار بن معد على وصف بعير - لم يروه - استنباطا من آثاره ، لها مايبررها فى مجال التعليل الذى يكشف عنه النظر الثاقب ، وتهيئ له دقة الملاحظة . أما قيافة البشر فقد كان المسلمون على حق فى الاختلاف فى أمرها ، فإن كثرة الشذوذ فى قواعدها ، تفسد اتساق هذه القواعد ، والمثال الذى سقناه للتدليل على فراسة أقليمون ، يمكن تفسيره بأنه كان يعرف ميل بقراط للزنا ، وإذا كان هذا قد صرح بميله لتلامذته حين استفسروا منه عن ذلك ، فلا يبعد أن يكون قد ذكر هذا من قبل ، وأن يكون أقليمون قد تسامع به ، ولا صحة لقول رواة القصة ، إن «إقليمون» كان لا يعرف أن صاحب الصورة هو بقراط لأنهم يقولون « ... فصوّروا صورة بقراط . . وكانت يونان تحكم المصوَّر من جميع الوجوه ، فى قليل أمره وكثيره ... » وكان بقراط هذا يعاصر أقليمون ، فالراجح أنه كان يعرف صورته .

وإذا كان الاهتداء بالبرارى والقفار والريافة واستنباط المياه والمعادن ونزول الغيث ونحوه ، يصدق متى صحت المقدمات التى تفضى إلى نتائج هذا النوع من العلم ، فإن علم الأسارير والأكتاف والاختلاج والاختبارات ونحوه ، لا يصدق - فيما يلوح - إلا مصادفة ، لا تسكن إلى قاعدة يشهد بها قانون العلية ، ويرتضيها منطق العقل .

وهكذا ننتهى إلى القول بأن أحداث الغيب المحجب ، يتيسر الإنباء عنها ، متى سبقتها مقدمات تنذر بها ، وهذه المقدمات تتكشف للقليلين ، وتخفى على الكثيرين ، لأن الناس يتفاوتون فى خبرتهم ومدى ما يفيدون منها ، ويختلفون فى دقة الملاحظة

---

(١) الرازى : الفراسة ص ١٠ - ١١

وبعد النظر والقدرة على الحدس ، وغير هذا مما أسلفنا الإشارة إليه ، فإن ثبت انقطاع « الاتصال العِلّى » بين أحداث الغيب ومقدماته ، وجب التصدى لتكذيبها ومحاولة تحليلها فى ضوء المنطق العقلى وحده .

وإذا كنا قد استطعنا أن نحلل النماذج السالفة فى ضوء المنطق وحده ، فمن الإنصاف للحقيقة أن نعترف بأن فى فنون التكهن الصنعى ظواهر يقصر عن إدراكها وتعليلها منطق العقل فى وضعه الراهن ، وهـذه نقطة سنعود إلى مناقشتها وبيان موقفنا إزاءها فى الفصل التالى .

وأخيراً ، من الخطأ البين أن يستخف الناس بأصحاب التكهن ، فإن «لومبروزو» ومدرسته التى تأتم به ، قد اعتبروا الولع بالغيب واستكناه أسراره من علامات العبقرية . ! وهـذه العلامات « مهما يكن الشك فى استقصائها ، والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع ، صادقة فى حالات ، ومقاربة فى حالات ، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عند ما تتفق الظواهر والبواطن ، وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور »(١). ولعل هذا الرأى يبرره ما أسلفناه من قبل ، من أن هذا التكهن قد لا يتيسر بغير استعداد فكرى يتهيأ لأصحابه ، وحتى الجانب المكتسب منه ، لا يتوافر للناس جميعا ..

حسبنا هذا إشارة إلى مكانة أصحاب الولع بخفايا الغيب أو النزوع إلى استيضاح بواطنه وكشف أسراره .

---

(١) عبقرية عمر ص ٣٠ ــ ٣١

كلمة أخيرة

التنبؤ بالغيب بين مفكرى الإسلام وفلاسفة اليونان والرومان :

عرضنا فنون التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ، وقلنا إن قدماء الغربيين قد عرفوا مايشبه فنون التنبؤ الطبيعى ، وأساليب التكهن الصنعى — من كهانة وعرافة وطيرة ونجامة وعيافة ونحوها — وصرحنا فى مقدمة الكتاب — وفى غضون الكثير من فصوله — بأننا نميل إلى رد الكثير من وجوه هذا التشابه ، إلى طبيعة العقل البشرى ، فى وحدة استجاباته للمؤثرات المتشابهة ، وقلنا إن هذه النظرية تتناول وجوه الحضارات البدائية من سحر وعقائد دينية ونحوها ، وتمتد إلى دقائق البحث العلمى .. ! فلنقف عند هذه الظاهرة قليلا :

نتائج التشابه فى مصادر الإثارة ومراكز الاستجابة :

فى سنة ١٨٣٧ عقد تشارلس داروين Ch. Darwin عزمه على أن يكشف عن حقيقة النشوء بالانتخاب الطبيعى ، فاعتصم بالصبر والأناة ، وراح يتنقل فى شتى بقاع الأرض منقبا عن الوقائع التى يتطلبها بحثه ، عاكفا على عمله فى صمت يثير الإعجاب ، واتزان أضحى مضرب الأمثال ، عاف الطنطنة وزهد فى الدعاية لنفسه ، فأبى أن ينشر عن نتائج بحثه مقالا ، أو يشير إليها مجرد إشارة ، وإن صارح بها عام ١٨٤٤ صديقه العلامة يوسف هوكر Joseph Hooker فأسرّ إليه بخلاصتها خفية عن الناس[1] .

(1) A. D. White, A. History of the Warfare of Science with theology in christendom

واصل داروين بحثه فى هذا الجو العلمى الصامت الهادئ عشرين عاماً ونيفاً .. !

وعندئذ — أى فى عام ١٨٥٨ — تلقى مذكرة من ألفرد والاس Alfred Russel Wallace تتضمن خلاصة النتائج التى انتهى إليها فى بحثه موضوع النشوء بالانتخاب الطبيعى ، خلال عشرة أعوام قضاها فى التنقيب والبحث والتنقل بين البرازيل وأرخبيل الملايو ، ومع المذكرة خطاب يطلب فيه إلى داروين أن يبعث بها — بعد الاطلاع عليهـا — إلى العلامة تشارلس ليل Sir. Ch. Lyell ليقدمها إلى منتدى لينيوس Linnean Society . وما اطلع داروين على هذه المذكرة حتى أثارت دهشته، لأن صاحبها — والاس — قد اهتدى على وجه التحقيق إلى نفس النتائج العامة التى وصل إليها داروين من قبل .. ! ويسجل داروين — فى أمانة العالم النزيه — هـذه المفاجأة فى مطلع كتابه عن أصل الأنواع ، فيقول عن « والاس » إنه : « Has arrived at almost exactly the same general conclusions that I have on the origin of species » (1)

فما تفسير هذا الاتفاق الذى وقع بين عالمين يبحث كل منهما مستقلا عن الآخر..؟ التفسير الراجح فى منطق العقل ، أن الوقائع التى كانت موضوع البحث عند كليهما من نوع واحد ، وطبيعة العقل عند كليهما واحدة ، ومن ثم انتهى البحث عند كليهما إلى نتائج متشابهة ، ولم يكن فى حكم العقل أن تختلف وجهات النظر ، وقد تشابه فى الحالين مصدر الإثارة ومركز الاستجابة .

---

(1) Ch, Darwin, The Origin of Species-intr. p. 1. (1920) وعندئذ نصحه « هوكر » و « ليل » بالمسارعة بتقديم بحثه للهيئات العلمية وجمهور القراء ، مخافة أن يفقد ثمرة عمله المتواصل طوال هذه المدة ، فقدم إلى منتدى لينيوس ـ مع بحث والاس ـ خلاصة بنتائج أبحاثه ، ونشر البحثان فى الجزء الثالث من مجلة المنتدى ، وبادر إلى إصدار الجزء الأول من كتابه « أصل الأنواع » فى يوليه ١٨٥٨ ، واعترافا بمنهجه فى البحث وغزارة مادته ووفرة أدلته ، نسبت إليه نظرية التطور ، وسقط عند الناس اسم « والاس » .. !

وإذا كان هذا هو الحال فى دقائق البحث العلمى، فى موضوعات لا تتصل بطبائع البشر ، فما أحراه أن يكون كذلك فى موضوع كموضوع التنبؤ بالغيب ، تربطه بالطبيعة البشرية أوثق الصلات .

على أننا نبادر — دفعاً لكل لبس — إلى تسجيل احتياط لا سبيل إلى إغفال ذكره ، وهو أن ميلنا إلى تفسير الكثير من وجوه التشابه فى ضوء هذه النظرية ، لا يمنع من ميلنا إلى التسليم بردّ وجوه من التشابه فى هذا الصدد إلى نقل اللاحق عن السابق ، وعدوى الآراء وتزاوج الثقافات .

على أن الكثير من الآراء التى انحدرت إلى المسلمين عن اليونان والرومان ، مرجع الفضل فيها إلى قدماء الشرقيين .. !! فعن هؤلاء استقى الغربيون الكثير من الآراء التى تسللت إلى العالم الإسلامى بعد ذلك — فيما يقول مؤرخو التكهن بالغيب . ومن دلالات هذه الظاهرة :

أن مجلس الشيوخ الرومانى قد قرر — فيما يقول شيشرون منذ عشرين قرنا — إيفاد ستة — وقيل عشرة — من أبناء البارزين من الرومان ، إلى كل قبيلة من قبائل اتروريا ، لدراسة أساليب التكهن ، مخافة أن تضمحل وتتحول إلى أداة للاتجار والارتزاق(١) . ويرجع انتشار علم التنجيم — فيما يقول بوشيه لوكليرك — فى دول البحر الأبيض ، إلى الكاهن الكلدانى « بيروس » Bérose(٢) بل رد هيردوت فن التكهن اليونانى إلى أصل مصرى(٣) .

---

(1) Cicero, Divination, 1. 41 وقد مهر هؤلاء فى التكهن بفحص أحشاء الحيوانات وتأويل النذر الزاجرة المستمدة من خوارق الأرض والسماء ـ انظر الفقرة التالية فى الكتاب نفسه .

(2) Bouché. Leclercq, L'Hist. de la Divination, 1. p. 207

(٣) قارن تعليقات شارل أبون فى طبعة جارنييه على الفقرة الأولى من القسم الأول فى كتاب شيشرون السالف الذكر .

ويروى « شارل أيون » أن مجلس الشيوخ الرومانى كان كثيرا ما يضيق بكثرة الشرقيين من الكهان فى روما وإيطاليا كلها . وقد تقرر فى عام ١٣٩ ق . م طرد الكلدانيين من روما فى ظرف عشرة أيام[١] .

ويصرح الأستاذ بوشيه لوكليرك Bouché-Leclercq بأن اليونان قد استعاروا الكثير من معلوماتهم فى موضوع الأحلام ، عن مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم[٢] ، وإذا كان الثابت أن المسلمين قد استعاروا الكثير من وجهات نظرهم فى تأويل الرؤيا ، عن كتاب أرطميدورس اليونانى ، على اعتبار أن ابن النديم يقول إن حنين ابن إسحاق قد نقل هذا الكتاب إلى العربية[٣] ، فإن الأستاذ « سايس » يصرح بان أرطميدورس قد استقى مادة هذا الكتاب عن البابليين .. ![٤]

فمن حقنا بعد هذا أن نقول إن العالم الإسلامى ، إذا كان قد استقى بعض آرائه فى أساليب التنبؤ عن الغربيين ، فمعنى هذا أنه استرد تراثا شرقيا قديما كان قد انتقل إليهم وتفاعل مع تراثهم فى هذا الصدد ، وقد تمثل المسلمون هذه العناصر الشرقية المتغَرِّبة ، لأنها تساير روحهم وتتفق مع طبائعهم .

ومعنى هذا أن وجهات النظر الإسلامية فى موضوع التنبؤ بالغيب فى كل صوره ، مردها — فى الأغلب والأعم — إلى طبيعة التفكير عند أهلها ، والتراث الذى زودهم به الدين الإسلامى والبيئة العربية إجمالا . والنظرية التى حرصنا على تطبيقها على موضوع هذا الكتاب وهى «متى تشابهت مصادر الإثارة ومراكز الاستجابة ، تحتم

(١) شارل ابون فى تعليقه على الفقرة الحادية والأربعين من كتاب شيشرون Cicero فى « العلم بالغيب » طبعة جارنييه الفرنسية .

(2) Bovché- Leclercq vol. 1. p. 292,295

(٣) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٢٢٥ طبعة فلوجل .

(4) A. H. Sayce, Ency. of Religion and Ethics, art. Divination
وانظر فى تفصيل هذا كتابنا « الأحلام » .

أن تتشابه استجابة هذه المراكز » هذه النظرية لاتنفى تسليمنا باتصال المذاهب الغربية من رواقية وفيثاغورية وأفلاطونية محدثة وغنوصية Gnosticism ونحوها ، بالتفكير الإسلامى وتفاعلها معه حتى اصطبغت بها استجابات العقل الإسلامى ، ولوّنت تفكيره حين فَلْسف نظرته لهذا الموضوع ، أو علّل ظواهره وفسرها فى ضوء المنطق. وقد استوعب هذه العناصر الدخيلة وتمثلها ، وصبها فى قالب عربى إسلامى ، يكاد الناظر إليه — فى حالات التنبؤ الطبيعى بوجه خاص — ألا يفطن إلى المواد الغَرِيبة التى شاركت فى تكوينه .

عود إلى موقفنا من التنبؤ :

أبنا فى الفصل السالف عن موقفنا من التكهن الصنعى ، وعرضنا لتحليل النماذج التى سقناها شاهدا على صحة أساليبه ، وحددنا ما يصدق منها وما يبطل فى منطق العقل ، وقلنا إن العقل العلمى يذعن لنوع من التنبؤ ، تستخلص فيه نتائج مجهولة من مقدمات معلومة ، على افتراض أن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما ، وليس يسهل على هذا العقل أن يسلم بنتائج لا تسبقها مقدماتٌ يقرها ، ومعلوماتٍ لا ترتد إلى علل « قريبة » يسهل عليه إدراكها ، ومعارفَ لا تجىء عن طريق حس أو نظر عقلى ، ومعنى هذا — إن جاز أن يكون مثل هذا العقل العلمى ، هو الحَكَم الوحيد فى قضية التنبؤ بالغيب — أنه سينتهى إلى عكس ما انتهى إليه مفكرو الإسلام ، حين رفضوا التسليم بالصنعى من أساليب التكهن ، فاستبعدوا من مجاله كل ما كان نتائج لمقدمات تبرر قيامها ، وأذعنوا للتسليم بالتنبؤ الطبيعى الذى لا يجىء صناعة ولا اكتسابا . . !

ولكن الملحوظ أن التنبؤ الطبيعى ليس وحده الغريب على منطق العقل، بل إن

فى فنون الصنعى من التكهن ظواهر قد تقصر العقول عن إدراكها ، رغم أن بعضها يدخل فى نطاق التنبؤ العلمى السالف الذكر ، من حيث إنها نتائج لمقدمات تسبقها ، ومعلومات لعلل تؤدى إليها ، فماذا يكون موقف العقل من مثل هذه الظواهر . . ؟

أينكر صحتها استنادا إلى عجزه عن فهمها ..؟ كلا ، فإن من الحق أن يقال إن الظاهرة قد يستقيم وجودها ، مع الجهل بتفسيرها والقصور عن تعليلها ، وفى ذلك يقول فلاسفة الرواقية الذين أبلوا فى الدفاع عن التنبؤ بلاءحسنا ، أن إنكار قيام ظاهرة ما ، اعتمادا على عجز العقل عن فهمها ، يبرر عند من يجهل سر المغناطيسية أن ينكر جذب المغناطيس للحديد وهو يراه بعينيه ، ويبيح لمن يعجز عن تعليل علاج الأمراض ببعض الحشائش ، أن ينكر أثر هذه الحشائش فى شفاء المرضى ، وكم شهدت التجربة بصدق ذلك ..!!

وهذا صحيح فى منطق العقل نفسه ، ولكن هل معنى هذا أن العقل مطالب ـ تمشيا مع هذا المنطق ـ بأن يسلم بصحة مايقصرعن إدراكه وتعليله . . ؟ كلا ، فإن بعض الذين أوتوا المهارة فى الألعاب ، (كالحواة ونحوهم) قد يأتون من الألعاب والحيل ما يثير كل دهشة ، وتقصر عن إدراكه العقول ، ومع هذا فإن بعضهم ـ على الأقل ـ لا يدعى بأن ألعابه التى يبدو أن تفسيرها ليس فى متناول العقول ، أثر من آثار القوى الخارقة لنواميس الطبيعة .. ! فكيف تطالب العقل بعد هذا بأن يذعن للتسليم بصحة كل ظاهرة لا يقوى على فهمها .. ؟ فى الحق إن من الخطأ البين أن ينتهى الإنسان من قصور العقل عن التفسير والتعليل ، إلى القطع بالإنكار أو الجزم بالتأييد .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العقل ليس كل ما لدى الإنسان من أدوات

المعرفة ، وإن كان فى رأينا أ كملها جميعا .. ! وإن صح هذا كان من حق الإنسان أن يتردد فى الإذعان لبعض أحكام العقل ، وأن يتريث فى إنكار الظواهر التى عجز هذا العقل بمناهجه عن تفسيرها ، هذا إلى احتمال أن تتهيأ له فى مقبل الأيام قدرة تمكنه من فهم ما عجز عنه فى حاضره .. ! وتاريخ العقل أعدل شاهد على ما نقول .

ومعنى هذا أن قصور العقل عن إدراك ظاهرة ما ، أو تعادل السلب والإيجاب بصدد حكمه عليها ، لا يبرر التأدى من ذلك إلى متابعة هذا القصور ، والإذعان لهذا العجز ، والانتهاء إلى إنكار الظاهرة نفسها ، وإذا كنت قد كفلت للعقل سلطانه فى علاج هذا البحث منذ بدايته إلى نهايته ، فقد ألزمته حد الترجيح ، وأبيت عليه أن يتجاوز مجاله إلى نطاق اليقين ، رعايةً لحدس القلب ، واتقاءً لما يحتمل أن يترتب على إفراد العقل من شطط التقدير ، وما أظن أنى — وأنا أُكبر العقل وأعتبره أكمل أدوات المعرفة إطلاقا — أغالى إذا قلت إن من الخير لمن لم يجد من منطق عقله ، ما يهديه إلى وجه الاطمئنان ، أن يتريث فى إصدار حكمه ، وحسب الإنسان فى بعض الحالات وحى قلبه ، فربما كان هـذا أصدق من لجاجة العقل وجموح تأملاته .. !

فهرس الكتاب

كتب للمؤلف

١ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ـ صدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية .
فى أكتوبر ٩٤٥

٢ — الأحلام ـ بحث مقارن : جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة فى مايو سنة ٩٤٣ وقامت بنشره مكتبة الآداب.
ظهر فى آخر سبتمبر ٩٤٥

٣ — الشعرانى : إمام التصوف فى عصره ـ صدر فى سلسلة أعلام الإسلام . (للجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية)
ظهر فى أغسطس ٩٤٥

٤ — الفلسفة والإلهيات Philosophy & Theology ترجمة عن ا . غليوم ، نشرت مع التعليق عليها فى كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam الذى قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم
ظهر فى أكتوبر ٩٣٦

٥ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه ـ قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم .
ظهر فى نوفمبر ٩٣٦

٦ — العلم بالغيب فى العالم القديم ـ لفيلسوف الرومان وخطيبهم «شيشرون» + ٤٣ ق . م Cicers قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقا لرسالة الدكتوراه السالفة الذكر .
(سيطبع قريبا)

٧ — التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى ـ بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف فى يونيه ٩٣٨
(سيطبع قريبا)

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى ، رئيس الجمعية — والدكتور عثمان أمين ، سكرتيرها العام

يشترك فيها أعلام الباحثين فى الفلسفة والاجتماع. تستأنف النهضة العلمية فى الشرق وتجعل مسائل الفلسفة فى متناول الجميع، ضرورية لكل مثقف وباحث .

ظهر منهـــا :

١ — فيلسوف العرب والمعلم الثانى : لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا
الرئيس الفخرى للجمعية ووزير الأوقاف

٢ — الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٣ — شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

٤ — الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حلمى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب

٥ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق

٦ — التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

٧ — المسئوليـة والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٨ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام: للدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول